السعدي الشيرازي

حياته وعصره، آثاره وأدبه، آراؤه في

الدين والأخلاق، والسياسة والاجتماع

بقلم

الدكتور ظهير الدين أحمد

خريج كليتي "دار العلوم" بمصر وحيدر آباد

ليسانسيه في الفلسفة والآداب من "الجامعة المصرية"

ودبلوم في الأدب الفارسي من جامعة بنجاب



السعدى الشيرازى



السعدى الشيرازى

الفهرست

A.B. Khazindar

تصدیر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يحتفظ تاريخ الأدب الفارسي منذ الفتح الإسلامي واعتناق أهل إيران دين الإسلام بذكر رجلين يمتاز كل منهما بابتكار خاص انفرد به دون جميع أدباء الأمة الإيرانية . أولهما الشاعر المؤرخ الفردوسي ([illegible] هـ) ([illegible] م) صاحب الشاهنامة المعروفة وهي مجموعة شعرية تمثل صورة واضحة للعصر الذي عاش فيه والعصور التي تكلم عنها من أزمنة . وهي من أبلغ ما نظم وأرق ما عرف بالفارسية في الأدب الفارسي طيلة تلك التواريخ المطولة ولم يقم في بلاد العرب وإيران شاعر الف في هذا الفن مثله الشاعر هذا الإيراني الشهير الذي أبلغ ما نظم في الفارسية

ما في أسلوب السعدي من تساند العقل الرجيح مع
التصور السامي والفلسفة الدقيقة مع سلامة الذوق
والسمو بالأخلاق على طريقة عملية واضحة فقال عنه:
« إن السعدي في الحقيقة رجل منا » بل زاد على ذلك
أيضا « إنه ليس منا فحسب بل إن مواهبه النادرة جديرة
أن يكون للعلم والأدب نصيب كبير من ميراث
قلم صاحبها.

وكذلك يقول فيه باربيه دي مينار
الكاتب المستشرق الشهير:

« إن كثيرا من مأثورات السعدي يذكرنا
بدقة هوارس وهو فيه رشيق كأوفيد ومتحمس
ساخر كرابليه وبسيط سهل كلافونتين ».

وقد مكنته حياته الاجتماعية وشدة اختلاطه
بالناس ودراسته لأخلاقهم وعاداتهم وماضيهم
وحاضرهم وبالأخص لتاريخ الإسلام من أن يحول

تأمله في نفسه وفي بني جنسه فيستخرج فلسفة جديدة موضوعها الأخلاق والمجتمع.

* * *

ومن الطبيعي أن يتساءل الكثيرون عن الحامل لي على اختيار السعدي وجعله موضوعاً لبحثي دون الفردوسي وهو سؤال وإن كان وجيهاً إلا أن القارئ يجد جوابه في الأزمة الأخلاقية التي نعيش فيها بين زعازعها .... ونحن أحوج ما نكون في الوقت الحاضر إلى بحث أخلاقي منه إلى بحث تاريخي ومن هذا النوع يجد الحكمة وجمالها وأسرارها عند متناولي حديثه ولديهم الإقبال عليها والاسترشاد بها وأنا شاب في ربيع التعلم والكسب من طريق الدرس ولذلك كان إقبالي على السعدي من هذه الوجهة سبباً من أهم الأسباب وأنا أصيب غرضين بحجر واحد فأكتب عنه وأغذو

فقد أرخينا لها القلم

على أن الشرق [illegible] وعاد الأفضل

في الغرب [illegible] أضياء من الوجوه التي أشرقت [illegible]

[illegible] بصر المشرق [illegible] الطعام وعلى [illegible]

[illegible] كما [illegible] الآثار [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] السنين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] المشرق [illegible]

[illegible] ذلك [illegible] كثيراً مستفيضاً

ولا شك أن [illegible] مثل هذه الجهود [illegible]

اننا فيه تحت نقش القرون من عهد طويل دليل ناطق بأنه رجل غير عادي وأن عبقريته تضعه في حظيرة العظماء من الرجال

وربما كانت هذه العناية من أكبر أسباب النهضة الغربية التي دفعت بجهود أبنائها العاملين الى التنقيب عن كنوز العقول والا لكانت ثوت في ظلمات الأيام الغابرة دفينة في تراب الإهمال والنسيان لا فرق بينها وبين أدنى العقول البشرية كما لا فرق بين الذهب والحجر الرخيص مالم تقع عليهما العيون كما يقول السعدي في بعض قطعه.

* * *

ومما انتهى الى مبلغ هذا الولع عندهم عنايتهم بوضع الكتب في بحث عظماء الناس من الوجهة النفسية وعلى الأخص كتاب وقع تحت يدي للعلامة و. اوستولد .W. Ostwald الأستاذ في جامعة

ر

ليبزيج . أعجبني السبب في وضعه لأن طالبا يابانيا في سلك تلك الجامعة سأله: كيف يمكن الاهتداء إلى نوابغ المستقبل بمجرد النظر إلى صغار الطلبة حتى أن هذا الأستاذ سأل عن السبب الذي دفع إلى هذا السؤال المدهش وكان يظن أن مجرد خاطر قام لفكر هذا الطالب فإذا به مطلب سابق فكرت فيه حكومة دولة اليابان فخصصت مبلغا وافرا من المال في سبيل إخراج الصغار من أبنائها الذين يمكن التنبؤ بنبوغهم فيما بعد وليس هذا مقام الإفاضة في موضوع هذا الكتاب أو غيره لأن ذلك بعيد عن غرضنا وإنما ذكرناه إشارة إلى مقدار كبار الرجال على وجه عام وإلى ما بلغت عناية أولئك القوم من تأثير النبغاء حتى وهم في سن الطفولة ليمكن لهم تعهد هذا النبات وتمكينه من النمو بما يحيطونه به من حرارة الرعاية والالتفات

وإذا كان هذا سبيلهم مع هذا التراث الفكري وهو لم ينضج ويثمر بعد فكيف نقعد نحن الشرقيين عن تناول جناه وهو ناضج مثمر دانى القطوف.

* * *

وإذا كنت تملأ نفسى النشوة كلما ذكرت أننى أحد أولئك الذين زحزحوا الستر عن وجه هذا الرجل العظيم حتى لا تقوم الحوائل بين الناس وبين آثار حكمه فإن هنالك نشوة أخرى تهزني وعملى هذا سيكون خير اعتراف منى بجميل وزارة المعارف الآصفية التى كانت سببا فى سلوكى هذا السبيل إذ أوفدتنى إلى الجامعة المصرية وكلية دار العلوم بمصر لأتمم دراستى بعد أن تخرجت من كلية دار العلوم بحيدر آباد ومن جامعة بنجاب وحزت منها على أعلى شهادة فى الأدب الفارسى فإنى أقدم

إلى ثمرة مجهودى الضعيف لأعرب لها عما تكنه جوانحى من الحب الوفير والإخلاص الشديد بالنيابة عن الشبيبة الهندية التى تشجعها وتساعدها على تنمية جهودها العقلية بإنشاء روابط علمية بين مصر والهند تقوى أواصرها على مر الأيام ومما لا نزاع فيه أن هذه خطوة مباركة فى سبيل النهضة الشرقية تبشر بالخير الكثير فى المستقبل القريب .

* * *

وإذا كان لحكومة حيدرآباد فضل على يذكر فى إنجاز عملى هذا فإننى لن أنسى حضرات أساتذة الجامعة الأجلاء الذين سقوا نفسى كأساً مترعة من فيض علمهم الغزير الواسع فكان لهم فضل تقويم تثقيفى لهذا كان لزاماً على أن أسجل هنا مع الإعجاب الشديد بما تمثله الجامعة المصرية من

ى

الذكاء المصرى والعبقرية المصرية ما أضمره من الاعتراف بالجميل والإخلاص الأكيد نحو عطف الأستاذ الجليل والبحاثه المعظم الدكتور منصور فهمى والعلامة الكبير الأستاذ المحقق محمد الخضرى بك وجميع أساتذتى الكرام.

ظهير الدين احمد

القاهره، إبريل سنة ١٩٢٦ م

رمضان سنة ١٣٤٤ هـ

١

حياة السعدي

إسمه ومولده (١) ـ بحث في تعيين عام ولادته (٢) ـ نشأته (٧) المعارف التي تلقنها في صغره (٩١) ـ فضل أمه عليه (٩١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

السعدى ١

اسمه ومولده

ولد فى شيراز حوالى سنة ٥٨٠ الهجرية حيث سمى شرف الدين عبدالله ، وعلى رواية مرشد الدين ابن مصلح الدين عبد الله ، واشتهر بلقب « السعدى » . ولقد بحثنا كثيرا فلم نجده بيانا وافيا عن أسرة السعدى ، وكل المصادر التى تحت يدنا عند الكتابة عنه صامتة كلية من هذه الناحية ، ولقد كانت هذه المعرفة تفيدنا كثيرا عندما كنا نتعرض لعبقريته الفياضة على الشرق والغرب فأن مما لا يمكن إنكاره ما للوراثة من الأثر الواضح فى تكوين النشأ ، وكل ما يرشدنا إليه المؤرخ دولتشاه ينحصر فى أن أباه كان اسمه عبدالله ، وأنه كان فى خدمة الأمير سعد بن زنجى حتى أنه أخذ هذه النسبة « السعدى » من هذا الاسم ولكن الذى نطمئن إليه أن السعدى نفسه انتحل لنفسه هذه التسمية اعترافا بالجميل .

وكما أننا نجهل أسرة السعدى ، كذلك نجهل عام ولادته فقد كان مصدر خلاف شديد بين المؤرخين :

ذكر دولتشاه والسرجور أوسلى أنه ولد سنة ٥٨٩ هـ . وهذه الرواية غير صحيحة لأن من المسلم به أن وفاة ابن الجوزى كانت فى سنة ٥٩٧ فإذا صح أن السعدى ولد فى سنة ٥٨٩ لكان عمره عند وفاة ابن الجوزى ثمان سنوات مع أن السعدى يذكر عن ابن الجوزى أنه كان من كبار أساتذته وأنه كان ينصحه .... الخ ، وهذا معناه أنه ظل زمنا غير قصير تلميذا له ، الأمر الذى لا يتفق مع سنة ميلاده حسب رواية دولتشاه والسرجور أوسلى لأنه على هذه الرواية يكون ابن الجوزى توفى حين كان السعدى لا يتجاوز ٨ سنوات .

وبما أن السعدى يذكر أنه درس فى نظامية بغداد على

ابن الجوزي الذي مات سنة ٥٩٧ فلابد أن يكون السعدي توجه إلى تلك النظامية قبل هذا التاريخ ، ولكننا لا يمكننا أن نحدد الوقت الذي ذهب إليها فيه .

وإنما إذا رجعنا إلى أقوال السعدي في البستان من أنه غادر شيراز وهو شاب وأنه أخذ العلم على ابن الجوزي زمنا طويلا لكان لنا مندوحة من الاعتراض على الأستاذ هنري قسي الذي ذهب إلى وضع سنة السعدي بين ٩٦ و ٩٩ سنة . وعلى كل من دولتشاه والسرجور أوسلي الذين قالا بأنه عاش مائة واثنين سنة ، وعلى الأستاذ براون الذي يميل إلى أنه ولد سنة ١١٨٤ م ، (سنة ٥٨٠ هـ) وأيضا على من قدر عمره بمائة وعشر سنة .

وبسبب عدم أخذنا برأي الدكتور هنري قسي أن من الثابت أن وفاة السعدي كانت في سنة ٦٩١ هـ ، فيكون

مولده باعتبار أنه عاش ٩٩ سنة (وهو أقصى ما ذهب في التقدير إليه الدكتور المشار إليه) في سنة ٥٩٢ الهجرية، ولكن ابن الجوزي توفي سنة ٥٩٧ حيث كان السعدي وقتئذ ابن خمس سنوات وهو سن غير معقول بالمرة أنه تلقى العلم قبلها على معلمه المذكور

وعلى رأي الأستاذ براون يكون السعدي قد ولد بعد أن توفي ابن الجوزي بخمس سنوات وهذا مخالف للواقع ومناف لقول السعدي نفسه من أنه تلقى العلم زمناً طويلاً عليه وكذلك يكون اعتراضنا على الأخذ بالسن الثانية وهي سنة ١٠٢ لما فصلناه لأن أقل ما يترتب عليه أن يكون السعدي بدأ يتلقى العلم على ابن الجوزي وصار ابن ثماني سنوات مع أن ابن الجوزي توفي في تلك السنة وبمثل ذلك نكون محقين في عدم الأخذ بأنه عاش سنة ١١٠ لأننا لو أخذنا بها (١) مع

---

(١) انقسم المؤرخون [illegible] في تاريخ وفاة السعدي إلى [illegible] فمنهم [illegible] ومنهم [illegible] ٦٩٠ [illegible] ومنهم [illegible] ٦٩١ [illegible]

تسليمنا بصحة السنة التي توفي فيها وهي سنة ٦٩١ عربية)
لوقع مولده في سنة ٥٨٠ وعلى هذا الحساب يكون ابن الجوزي
توفي حيث كان عمره ١٧ سنة فإذا فرضنا أنه غادر شيراز وهو
ابن تسع أو عشر سنوات كان هذا مخالفا لنفس قوله من أنه
غادرها شابا وإذا رجحنا مغادرته إياها لما بعد هذه السن
كان يكون بارحها وهو ابن ١٣ أو ١٤ سنة مثلا كان الزمن
الذي قضاه بعد ذلك مع ابن الجوزي في الدرس قليلا جدا
يتناقض مع ما ذكره هو من أنه تلقى العلم عليه زمنا طويلا
وحينئذ نكون في حل من الأخذ برأي من قال بأنه عمر مائة
وعشرين سنة لأن عندئذ ترتفع كل الاعتراضات السابقة
ولا يبقى هنالك مانع من مغادرته شيراز في أيام شبابه
وفي تلقيه العلم على ابن الجوزي زمنا كافيا ومن المتمسكين
بهذا الرأي الأستاذ سلفستر ساسي (راجع كتابه عن شعراء الفرس

ولكننا نرى من الواجب هنا الوقوف لحظة عند ما قرره السعدي من أنه حل مدينة كاشغر في السنة التي عقد فيها السلطان محمود خارزم شاه الصلح مع خطا وهي سنة ١٢١٠م (سنة ٦٠٨ هجرية) وأن صيته كان قد طار إلى هذه المدينة من قبل حتى أنه حين دخلها لم يكن اجنبيا بالنسبة لأهلها وهذا القول يجر إلى اعتراض من السهل دفعه وهو أن محمود خارزم شاه توفى سنة ٥٨٩ هجرية لأنه يترتب على ذلك :

أولا — أن الصلح المذكور حصل بعد وفاته ويكون هذا أمرا غريبا

ثانيا — أن تكون شهرة السعدي ذاعت وقت أن كان لا يتجاوز من العمر ثمانية عشر سنة وهي سن لا تتفق مع هذه الشهرة ولا مع ما تقدم بالنسبة لتلقيه العلم على مؤدب ابن الجوزي .

ولكن يظهر أن السعدي نفسه أخطأ في اسم الشاه الذي عقد الصلح مع خطا . ولعله أراد علاء الدين خارزم شاه لأن هذا الأمير في الحقيقة هو الذي عقد ذلك الصلح وهذا يدفع الشبهة السالفة لأن ذلك الصلح وقع سنة ٦٠٨ حيث كان عمره وقتئذ ٣٠ سنة وهي سن تتفق مع ما انقضى من السنين في العلم ومع ذيوع صيته بعد ذلك.

نشأته

أما نشأته فقد كان للأبيه تأثير فيها حيث كان يملي عليه أصول التربية الدينية ويبعث في روعه حب التمسك بالفضائل وسلوك مناهج الورع خصوصا فيما يتعلق بالكلام من حيث كثرته وقلته وصدقه وكذبه وغثه وثمينه ، ولقد كان حريصا عليه الحرص كله يلازمه في جميع الأوقات وفي سائر الأمكنة وفي المواسم والأعياد وفي خلواته وجلواته حتى أشرب قلبه حب التخلق بما كان عليه والده من الانقطاع إلى الزهد والعبادة. وكانت المعاملة بين الأب وابنه على حالة يغلب فيها الزجر والتشدد في النصيحة والموعظة . وإني مقدم إليك شيئا من الحوادث يحدد لنا جانبا من ميوله وأهوائه ينم عن دلائل على نبوغ السعدي وأنه كان قديرا على استنباط أسمى قواعد الأخلاق من أصغر حوادث حياته ، ومن ذلك نهتدي إلى صورة صحيحة مما كانت عليه تلك الحياة .

فقد قال أنه انفرد بأبيه ليلة من الليالي يتلوان فيها القرآن ويقومان بما يقوم به الساهرون المجتهدون فأعجب بنفسه وأخذ

فينتقد النائمين ويفاخرهم بسهره ويقظته ولكن أباه راجعه بقوله «لقد كان خيرا لك أن تنام من أن تقطع يقظتك في اغتياب الناس»

وهكذا نلمس في هذه الحادثة عناية أبيه ودقة ملاحظته معه ليطهر نفسه ما داخلها من الخيلاء والغرور.

والسعدي يحدثنا أيضا في البستان أنه إنما وصل إلى هذه المراتب كلها بتشدد أبيه معه وتعنيفه إياه حتى أنه كان يضربه أحيانا على قذاله كلما شعر بانحرافه عن الطريق السوي.

وما أحرى أن يكون مثل هذا دليلا ناطقا بتقدير الأبناء لآبائهم وحسن تقديرهم برهم مع مثل هذه الشدة التي كان من أثرها أن يشب السعدي على ضخامة العزة وعظمة النفس.

ومع ذلك فقد كان أبوه يعرف أيضا كيف يشجعه ويغرس فيه حب الكمال من طريق الرغبة دون الرهبة حتى أنه لما جاءه مرة باللوح والقرطاس أعطاه أيضا خاتما من الذهب ، وهكذا نرى أن شدة الآباء على أبنائهم في مثل تلك القرون كانت لا تخلو من الشفقة عليهم حتى يمرحوا في ظلال الحرية وتتفتح عواطفهم للمولد

في ميدان الجمال الذي كان مظهراً من مظاهر حياة السعدي

«المعارف التي تلقاها في صغره»

ولقد كان أول ما تعلم في صغره يرجع إلى فروع الفقه وأحكام الصلاة والصوم والقرآن ورياضة النفس على السلوك والتقوى

«فضل أمه عليه»

وإذا كان لأبيه ذلك الفضل الذي سلف ذكره فقد كان لأمه من بعده أيضاً فضل كبير في تربيته وإنمائه وهي التي حضنته بعد أبيه وسايرته في أيام حداثته حتى كمل.

ومن الأمور التي نستطيع أن نتفهم بها شيئاً من حياته معها ما ذكره في الجلستان مما يتعلق بثورة الغضب التي تملكته مرة فكادت تباعد بينه وبين الكمالات الأدبية والشمائل المنشودة

ذكر «أنه أغضب أمه مرة في حالة الطيش والنزق وهو شاب فبكت وقالت له هل نسيت ضعفك في الصغر حتى تطاولت علي في الكبر». فما كان أكبر نفس هذه الأم وما كان أجدره بأن يعتبر بهذا الدرس — وتدل هذه الحادثة وغيرها على أن

لطباع السعدى فى ذلك العهد لم يتطرق إليها ما يحول بينها وبين التأهل لذلك المجد الأثيل الذى كان ينتظره غيابهم. ومع ذلك فقد كانت نفسه إذ ذاك بسيطة تخدع لأقل شىء.

ولعلك تذكر ذلك الخاتم الذهبى الذى أعطاه له والده مع الكتاب والقرطاس فلقد استطاع رجل أن يؤثر عليه ويأخذه منه مقابل قطعة من الحلوى. ولكن هذه الحادثة كانت فى عينيه درسا أغلى من الخاتم وأنفس من الذهب فلقد بعثت فى نفسه ذكرى نافعة مفيدة يميز بها بين قيم الأشياء ومقاديرها.

ومما حدث به كذلك عن نفسه على سبيل الموعظة أن أباه استصحبه فى يوم عيد والناس مزدحمون فأشار عليه أن يمسك بطرف ثوبه وأن يترسم طريقه لئلا يضل وهما يسيران فى وسط هذا الزحام وبينما هما كذلك رأى السعدى أطفالا مثله يلعبون فترك أباه ومال إليهم حتى إذا غاب عن نظره صرخ بأعلى صوته فعاد إليه وضربه فالسعدى يستنتج من هذا أن الصغير الجاهل يجب عليه أن لا يتخلى عن مشورة الكبير العاقل.

والحق هذا يجعلنا نفهم أن الرجل كان في حداثة سنه قوي الذاكرة نامي الملاحظة دقيق الاعتبار وأن البساطة والسذاجة لا تضران صاحبهما متى استطاع أن يصل بدقة تفكيره إلى فهم الحقائق من خلال الحوادث فلقد كان يروي لنا هذه القصص وهو يستخلص لنا منها القواعد التي نهتدي بها في طريق الحياة العملية الصحيحة .

إن السعدي من صغره كان محبا للأدب مطيعا له صادعا بأمره ملازما إياه وهما يقطعان الليل بالسهر بينما الناس قد غلب عليهم سلطان النوم ومع ذلك فبعد أن ذهبت تلك اليد الخشنة التي كان لها كل الفضل في تهذيبه واستكماله بقي أثرها الحميد في نفسه فأورثته صدق الاعتماد على النفس وقوة التحليل والفهم فعرف كيف يدرك لذة التصوف ويفهم معنى جمال الحياة حتى صاغ لنا فيهما تلك الأناشيد تتألق في ثوب تهذيبه الأثري وحتى سما إلى أفق الفضل فكان جديرا بأن يخطب وده جلالة الملك .

٢

العوامل التي كانت في نشأة تكوين السعدي (١٣)

العوامل التي كانت سببا في تكوينه

السعدي

إن ثمرة جهود الناس في حياتهم العلمية والعملية إنما ترجع في نشأتها إلى كثير من العوامل هي بمثابة المقدمات لها فيجب علينا أن نتقصاها ونتبينها إذا أردنا أن نقف على قيمة جهود الناس. وهذا البحث مع ذلك يضعنا أمام الشؤون العامة ويمهد لنا سبيل الأسباب الصالحة لنستخلص منها صيانتها ولذلك كانت دراسة الأدب في هذا العصر الأخير داعية إلى تفهم عناصر هذه العوامل نفسية كانت أو اجتماعية لتقدير أثرها من حيث القبح أو الحسن ونرجو أن نكون موفقين في سلوك هذا الطريق الوعر لنخرج منه إلى مقدار هذا الرجل العظيم.

وإذا بحثنا في حياة السعدي رأينا أن هنالك كثيراً من العوامل كانت سبباً في تكوينه وهذه العوامل تختلف باختلاف الوسط الذي عاش فيه ولهذا يصح أن نقسمها إلى

التقسيم :

أولا :- العوامل التى تأثرت بها حياته الأولى وهو فى شيراز .
ثانيا :- العوامل التى أعقبتها بعد أن غادرها إلى بغداد .
وهناك عوامل أخرى لا يصح أن نغفلها وهى مكانة أبيه التى كانت أول هذه العوامل ولذلك نخوض فيها قبل كل شىء . ثم أسفاره التى نختتم بها تلك العوامل

العوامل المؤثرة فى حياة السعدى فى شيراز

(١)

(والد السعدى)

إن الكلام على حياة والد السعدى واجب لأنه من أكبر العوامل التى كان لها أول تأثير كبير فى تكوينه سواء من حيث مبدأ الوراثة الذى أصبح مبدأ مقررا أو من حيث تعهده إياه فى صغره . كان أبو السعدى من رجال الدين الشديدى التمسك به المغرقين فى العبادة القانعين فى الحياة لعلمهم بأنها عرض زائل حتى بلغ بهم الاستمساك بالدين

إلى التصوف والانزواء تحت علمه والاسترسال في الخلوات والأذكار. وقد رأينا أثر ذلك في نشأة السعدي وهو ينقطع مع أبيه من الليالي الطوال في التعبد والتهجد وتلاوة القرآن.

على أن والد السعدي كان من طبعه شديداً معه كما ذكرنا حتى اعتاد الخضوع له والامتثال إلى إرشاداته وهكذا تكونت في نفسه أسمى الملكات النفسية وهي اعتماده على نفسه بعد موت أبيه. وسنرى من أثر هذا الاعتماد أنه دفعه إلى الهجرة لبغداد فراراً مما كان يجري في شيراز من تشدد الحكام واستبدادهم واضطراب الأحكام وأيضاً لاستكمال نفسه بما ينقصها من العلوم على أيدي المتفقهين ورجال الحكمة والفلسفة ببغداد.

ولا شك أن هذا العامل الأول كان القالب الذي خرجت منه عزيمة نفسه في صورة كاملة من صفات أبيه التي ظهر أثرها فيما بعد في مواعظه الخاصة بالتربية الأخلاقية وسنذكر شيئاً من ذلك في موضعه.

(٢)

كبار المتصوفين والأدباء في شيراز

علمنا أن السعدي في عهد أبيه تذوق طعم الاتجاه إلى العلم والانصراف إلى استكمال النفس حتى أصبح ذلك غراما عنده من صغره وما كان في ذلك العهد شيء من زخارف مدينة العهد الحاضر يصرفه عن هذه الغاية سيما وأبوه إلى جانبه مصباح يضيء الطريق أمام خطواته الأولى ، فلما انطفأ ذلك المصباح شعر السعدي بفراغ في نفسه بعد ذهاب ذلك المرشد الشديد الرحيم فكان لابد له من البحث عن مصباح آخر فوجده عند من كانوا من أئمة الدين والأدب في ذلك العصر وهم «قطب الدين الشيرازي» و «فريد الدين العطار» و «جلال الدين الرومي» و «الفردوسي» وغيرهم .

وإذا كانت حياة السعدي بعد أبيه قد اكتسبت شيئا من عرفان أولئك الأئمة فقد وجب أن نذكر كلمة عن كل منهم .

ولنبدأ بقطب الدين الشيرازي لأنه كان على رواية كثير من خال السعدي أو عمه فكان في الحقيقة كأبيه من بعده .

وقطب الدين هذا من كبار العلماء في الفلسفة والحكمة وقد تخرج على يده المحقق الطوسي الشهير . وهو صاحب كتاب في المنطق شهير باسم القطبي نسبة إليه يدرس بكل أنحاء الهند .

أما الذين تأثر بهم السعدي في حياته غير قطب الدين فهم فريد الدين العطار . وكان طبيبا وصاحب حانوت يتجر فيه بالعطار وما كان متصوفا في الأصل وإنما دخل في التصوف لحادثة غريبة نذكرها هنا على سبيل الفكاهة (1) ، وهي أنه كان يوما بحانوته وكان حانوتا منسقا مزينا فمر به درويش فقير فأعجبته زينة هذا الحانوت وهو مستغرق في النظر إليه طرده فريد الدين وقد صاح به اذهب فقال لقد ذهبت وأما أنت فماذا يكون مصيرك وعلى إثر ذلك خر ميتا فاضطرب فريد الدين وترك الحانوت واعتزل الناس ومن ذلك اليوم اعتنق التصوف وصار من أقطابه . وله فيه مصنفات شتى نذكر منها كتاب

---

(1) راجع شعر العجم للعلامة شبلي النعماني الهندي .

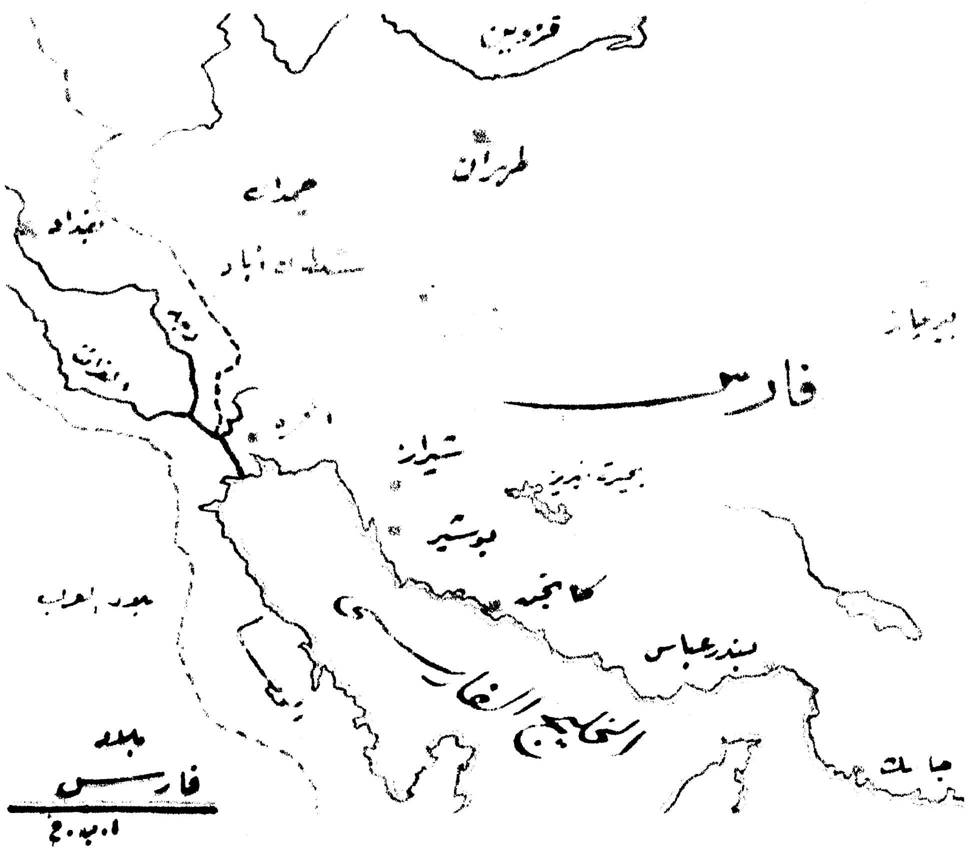
«مصيبت نامه» يرثي فيه العالم وكتاب «الهي نامة» في الوحدانية ومثله كتاب جواهر الذات في الذات العلية وكتاب الشهير منطق الطير وله أيضا ديوان صوفي يقع في مائة ألف بيت وقد استند على كل هذه الكتب المستشرق الانجليزي الشهير المستر براون الاستاذ بجامعة كمبردج.

كذلك من الذين تأثر بهم في حياته الأديب الفارسي الشهير كمال اسماعيل.

أما الذين تأثروا بالسعدي بآثارهم بعد وفاته فمنهم جلال الدين الرومي صاحب كتاب المثنوي وهو من أكبر المتصوفين حتى أن معاصريه كانوا يقدسون تعاليمه وينزلونها منزلة القرآن من حيث الحكمة والارشاد ولعل تلقبه بالرومي لأنه ولد في آسيا الصغرى وكلمة المثنوي المسمى بها كتابه معناها الأشعار التي لا تراعى فيها القوافي وهي مجموعة القصص كان جلال الدين يستخلص من كل منها عبرة ومن ذلك :- أن أحد الرعاة كان يناجي الله في غير أدب

نزجره سيدنا موسى عليه السلام وكلمه الوحي نزل عليه يقول له:
إني لم أرسلك لتصرف القلوب عني ولكنك باعتراضك على هذا الرجل
[illegible] صلته بي ولتعلم أنني لم أهتم بظاهر العبادات ولكن بصفاء
معتقداته.

[illegible] من كبار شعراء الصوفية وهم أوحدي وأنوري
[illegible] صاحب الحديقة و[illegible] وغيرهما وأخيرا الشاعر المؤرخ
الفردوسي [illegible] أكبر شعراء الفرس حتى أن مولانا [illegible] الشاعر
[illegible] والسعدي أنبياء الشعر الثلاثة
[illegible] باسم الشاهنامه
[illegible] في لغات الأرض أجمع ولسنا
[illegible] صاحب الشاهنامه انه يقل في شيء عن أعظم شعراء
الزمان والمؤرخين مثل هوميروس اليوناني وشاكسبير الإنجليزي
وغيرهم والذين مخطئين إذا قلنا أنه لم يقم في العرب شاعر
ألف التواريخ المطولة شعرا مثل هذا الإيراني الشهير الذي
بلغ كتابه ستين ألف بيت من الشعر وقلما يوجد فيه كلمة
أجنبية.



قزوين
طهران
همدان
بغداد
سلطان آباد
دجلة
الفرات
فارس
شيراز
بحيرة نيريز
بوشهر
بندر عباس
الخليج الفارسي
جاسك
بلاد العرب
بلاد
فارس

ولقد كان من تأثير هذا الماس في نفس السهروردي أنه فيما بعد أصبح له القدح المعلى في الأدب والحكمة وكذلك في التصوف ولكنه على أسلوب خاص يتعارض مع أسلوب أولئك المتصوفين وسيأتي تفصيل ذلك كله فيما بعد.

(٣)

البيئة

إن البذرة في الأرض لا تصلح إلا إذا صادفت وسطاً ملائماً لنموها فالأرض اليابسة تخنقها وهي في أول أطوار حياتها وإذا كانت غير عميقة تزاح البذرة فيظل كان النبات عند أول هبوب الريح عرضة للزوال كما أنه يجب أن تحيط بالبذرة حرارة بنسبة خاصة لتحيا.

كذلك للنفوس وسط خصيص بها.

ولا يكفي أن تكون الطبيعة أول غارس للرؤوس البشرية المفكرة القديرة فلابد للطبيعة أن تضم إليها بيئة وحرارة معنوية خاصة تكفل الحياة لتلك الرؤوس وإلا

أجهضت لأن النبوغ كالنبات يتنوع بتنوع تلك الحرارة حتى
أن الكتاب وغيرهم من الفنانين تختلف آثارهم باختلاف
تلك البيئة المؤثرة فيهم.

ولذلك كان واجبا علينا أن نذكر طرفا من الوسط الذي
طلس فيه السعدي. وإذا كان قد قضى شطرا من عمره في
غير بلده وهذا يعتبر جهة أيضا الذي أثر على ما نظمه كانت
ضئيلة الأثر في نفسه بالنسبة لما قضاه في بيئته الأصلية
التي خرج منها وهي شيراز على وجه خاص وبلاد الفرس على
وجه عام ولقد ذكر هو نفسه ذلك في البستان من أنه يفضل
أبناء بلده على جميع الأشخاص الذين صادفهم أثناء رحلاته. ثم
إن تأثره بهؤلاء الأشخاص من مواطنيه لا يقوم مقام تأثره ببيئته
على وجه مطلق ولكن هؤلاء الأشخاص أيضا إنما كانوا من
نسل تلك البيئة التي كانوا بذرتها.

ولا غرو فإن بلاد فارس على وجه عام شهيرة بمناظرها
النضرة وأنهارها الجارية العذبة وجبالها التي لا ينقطع منها الخضرة

حتى أن أحد الملوك الفرس بجمهرة من أعوانه جاء فارس
وأقامت معه في أرضه الجزيرة التي بها الدولة والغوطة
شرب ماء منها فأمر له أنه تلك البحيرة في تلك الرياحين الخضراء
أسماء بلاد منها فأخذ لها تلك العيون الصافية المخضرة
الدنيا الجميلة تصفها بلغة عذبة وقد ذكر ذلك في كتاب
الحضارة الأولى العظيمة الشهيرة في تاريخه .

ولقد ظلت شيراز قرونا طويلة تذكر في الحساب الأول
في بقعة كريمة التربة خصبة النبات كثيرة الأشجار عذبة المياه
وافرة الرياحين والأشجار والأنهار والأزهار مما قد لا يجتمع في غيرها
من الأقطار حتى أن في أكثرها لا تنقطع طول السنة ...
... ونضرة لا تنقطع طول الماء ...
حدائق الشرقية ... خضرة ... متنزهات
العالم . قال أبو بكر الخوارزمي متنزهات الدنيا أربعة : مواضع
غوطة دمشق ونهر الأبلة وشعب بوان وصغد سمرقند ..
حتى أن أتابك أبا بكر سعد بن زنكي الذي ... في عهده

كان يفاخر بهذا المنتزه فيقول إن في مملكتي شيئين كان لا بد منهما في حالتي الخوف والطمأنينة: قلعة اصطخر السوداء ومنتزه شعب بوان، ولقد افتتن فحول العرب في وصف هذا المنتزه حتى قال فيه أبو الطيب المتنبي

مغاني الشعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان

* * *

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

* * *

إذا غنى الحمام الورق فيها ... أجابته أغاني القيان

ومن بالشعب أحوج من حمام ... إذا غنى وناح إلى البيان

* * *

يقول بشعب بوان حصاني ... أعن هذا يسار إلى الطعان

وقال فيه بعضهم

إذا أشرف المحزون من رأس تلعة ... على شعب بوان استراح من الكرب

ويبدو أن جمال هذا المناخ كان السر في إنبات العظماء والمصابيح من كبار الكتاب والعلماء في بلاد الفرس وعلى الأخص في شيراز التي كان يطلق عليها اسم "دار العلم" حتى

أطيب في وصف الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي بقوله
هات أيها الساقي اسقني فإنك لن تجد في الجنة ساحل ركن آباد ومنتزه
المصلى". وحق قال الشيخ علي حزين المؤرخ إن هواء شيراز يلائم
العقل والصحة كل الملاءمة. وحق أن السعدي أيضا أفاض
كثيرا في وصف هذه العاصمة البديعة بل إنه يمتاز عن غيره ممن
تناول وصفها بالإفاضة في عبارات فصورها لنا كما كانت في القرن
الثالث عشر تصويرا أعاد حياتها في هذا القرن الغابر إلى عصرنا
الحاضر إذ انتقل بنا قاطعين القرون إلى ذلك العهد القديم.
لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من وصف تلك المدينة وحياة
سكانها إلا أحصاها وسنرى مبلغ تأثير ذلك في نفسه لأنه
ما كان يذكر بجزئية من جزئيات ذلك العهد السالف في شيراز
إلا ويتعجب بحيث يتناول كل شئون الأدب والحكمة والاجتماع
والأخلاق والدعوة فإن شيراز على وجه خاص وبلاد إيران
على وجه عام كانتا من أكبر العوامل لإحداث هذا التأثير فضلا
عما اكتسبه في رحلاته الطويلة التي سنتكلم عنها.

لما ولد السعدي كان أمير شيراز هو أتابك مظفر الدين
تكلا ثالث ممثلي أتابك بفارس ولكنها كانت في ذلك العهد ميدانا
للقلاقل والاضطرابات حتى أن أتابك كان يعاني كثيرا من
المتاعب من جراء هذه التقلبات وعلى الأخص من جيرانه في الشمال
والغرب وهم سلاطين خوارزم وكذلك من حكام ما بين النهرين
حتى أن السلطان سعد أتابك الزنجي الذي تولى الحكم بعد ذلك
وإن كان ملكا عادلا حكيما إلا أنه تغلب عليه أحلامه الأثرة
والتوسع فأخذ يشن الغارة على البلدان الأخرى ولكن ما كان
يغادرها حتى كانت تقع في يد التتار الذين لم ير التاريخ مثيلا لهم
في الوحشية والأذى والاستخفاف بالفزع والتلذذ بسفك الدماء
حتى دب الرعب في القلوب واندفع الناس إلى الهجرة والتشريد من الطرق
التي تتفرع من شيراز وهي غير مأمونة تتوسط كما يتوسم الجبال عصابات
من اللصوص وقطاع الطرق يختبئون في انتظار المارين ولو هكذا كان شاعر

المستقبل يمحو في عصره هذه الاضطرابات التي لم تنقطع ، والتي كانت شيراز ميدانا لها وقد أشار الجغرافي ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان الذي تم سنة ١٢٢٤ .

ومن غير شك أن هذه الصورة القبيحة تركت في نفسه جرحا داميا إلى أن برع في نبوغه فكانت من أكبر المؤثرات على خياله وقلمه ولولا ذلك لما وضع البستان والجلستان وهما على الأغلب مرآة تنعكس فيها تلك الصور التي روعته في صغره فكانت سببا يدفعه إلى مناهضة الملوك والسلاطين ، وانتقادهم وإرشادهم مما سيأتي تفصيله في أثر جهوده الأدبية .

حوالي سنة ٥٨ هـ كانت جامعات شيراز مهملة ، وكانت مدارسها مغلقة على أثر تلك الاضطرابات السياسية التي أسلفنا ذكرها

أما في بغداد عاصمة ملك العباسيين فكان العلم فيها في أعلى ذلك العصر وكانت دورها العلمية يؤمها المسلمون من كافة الأقطار وعلى الأخص الجامعة النظامية .

ولهذا السبب فكر السعدي في الهجرة إليها ليغترف من علومها الدينية والدنيوية على يد مشاهير معلميها في ذلك الزمان .

ولما كانت هذه النظامية من أكبر العوامل في إنشاء ثقافة السعدي فقد وجب أن نذكر شيئاً على سبيل البيان من تاريخ تأسيسها .

يرجع الفضل في وضع أساس هذه الجامعة الكبيرة التي كانت أهم جامعات الإسلام في العهد الماضي إلى أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق الشهير بنظام الملك قوام الدين الطوسي وهو شيعي وكان في أول عهده قروياً على كثير من العلم بمسائل الدينية والدنيوية وقد سمع به علي بن شاذان المعتمد عليه حاكم بلخ من أعمال الفرس وبما كان عليه من العلم

من الذكاء فكان كل سنة يطير إليه ليستفيد من مواهبه في تصريف
شئون مملكته من نظام الملك وقد وجد داود بن ميكائيل السلجوقي
والد السلطان ألب أرسلان فعرف له قدره وأحسن إكرامه
ووصى به ولده حتى إذا أشار السلطان ألب أرسلان بتوطيد
الملك لولده ملكشاه لم يجد خيرا من نظام الملك ليكون
وزيرا له .

كان يصرف كل جهوده من أكبر حكام الإسلام لذا .

كان يصرف كل جهوده في تحقيق كل وجوه الإصلاح وعلى
الأخص التعليم حتى أنه كان إذا سمع بنبوغ أي فرد من أفراد
الدولة في أي ناحية منها بنى له مدرسة ودار كتب وأجرى عليها
وقفا يكفل لها الحياة والاستمرار وإليه وحده يرجع الفضل في
تأسيس الجامعة النظامية السالف ذكرها وقد بدأ في وضع
أساسها على رواية أبي الحسن محمد بن هلال الصابي في
ذي الحجة سنة ٤٥٧ حيث تم إنشاؤها بعد سنتين أي في
سنة ٤٥٩ واحتفل بالتدريس فيها في يوم السبت عاشر ذي القعدة

من تلك السنة وكانت مقامة على مقربة من الرصافة على شاطئ نهر الدجلة فى الجانب الشرقى من دار السلام (بغداد).

وكان من بين العلماء الذين عهد اليهم أمر التعليم فيها أبو القاسم الدبوسى و أبو القاسم القشيرى وأبي محمد و أبي اسحاق وكلاهما من شيراز ثم الأستاذ الشيخ شمس الدين أبي الفرج الشهير بابن الجوزى وضياء الدين السهروردى وأبي منصور الوزان وأبي عبدالله الطبرى صاحب التاريخ المشهور وحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالى الغنى عن الذكر وصاحب كتاب إحياء العلوم وغيرهم حيث كانوا يدرسون الفقه والتوحيد والتفسير والتصوف وهذا غير ما كان يترجم من لسان الإغريق.

ولقد ذكر السعدى فى البوستان اثنين من معلميه وهما ابن الجوزى والسهروردى الذى حل محله من بعده بهاء الدين زكريا أحد تلاميذه ، وهكذا ظل السنين الطويلة عاكفا فى هذه الجامعة على الدرس يتلقاه من جهابذ

لأستاذين متأثرا بما كان لهما من المكانة في التصوف ،
وتعاليم الإمام الغزالي الذي امتد ظله على ربوع
تلك الكلية العظيمة وكان أساتذته على جانب عظيم
غير العلم بسعة العقل والصدر فخلصت نفائسهم
قرار النفس من مشاعر المستقبل حتى نال كيانا وعيه
بالجامعة جديدا وحتى كتب له أن يكون أحد أولئك الأنبياء
الثلاثة ما ظهر أثره في البوستان والجلستان
وغيرهما سواء في التعاليم أو الحكمة أو الدين
أو الشعر .

والذي يجدر بنا إلفات النظر إليه
أن السعدي لم يخرج على أثر انتهائه من تلك
الجامعة صورة مطابقة لأولئك المعلمين بل إنه
كما ذكرنا فعلت فيه كل العوامل التي أسلفناها
فعلها فخلقت منه رجلا جديدا واسع العقل
دقيق النظر مستقلا في فكره حتى أنه لما يجار

اولئك المسلمين في أسلوبهم وغاياتهم بل أنه كان له رأى خاص لا يتفق مع آرائهم ، ومن ذلك مثلا رأيه في التصوف الذى أجرى مجاراته على صورة جديدة تقرب من أذهان الناس المؤمنين ببلوغ الكمال على اختلاف طبقاتهم [illegible] إياه على أسلوب [illegible] عن الدين ويدعوهم ذلك إلى استكمال الأخلاق .

وفي الحقيقة فإن الغزالي كان يرى أن الغرض من التصوف هو انتزاع النفس من سلطان الشهوة وتجريدها من ميولها الأثيمة حتى يصبح القلب مرآة لذكر الله ، ولكن هذا [illegible] الصورة [illegible] طرقه على أن [illegible] بغير [illegible] .

وكذلك فإن المتصوفين لا يقفون في فهم التصوف عند حد القرآن والحديث بل يجمحون فيه إلى القول المتأثر بالتجلي وعلى كل حال فإنهم يرون أن أول مراتب التصوف هو أن يتلاشى الإنسان في الله .

ولكن السعدي كان بعيدا كل البعد عن هذا الاتجاه

ولكن السعدي كان بعيدا كل البعد عن مثل هذا الاتجاه
وقد علمنا من آثار عقله وقلمه أنه في التصوف الذي كان وسطا
بين أهل هذه الطريقة وبين الدين حتى أنه كان لا يسلم بالحالة
النفسية التي كانت تطرأ على جلال الدين الرومي .

وسنرى أيضا من أثر استقلال الفكر والتصرف
عند السعدي أنه كان يخوض في شتى المواضيع حتى أنه فيما كان
يكتب من الوعظ السياسي يمس من أكبر سواسي ذلك الزمان
وقد اضطررنا للإشارة إلى ذلك هنا لكي نقدم منه صورة
صحيحة على ما كان لهذا الرجل العامل من الأثر العظيم في
إنشاء نفسيته كما ذكرنا .

يعجبني ما قرأته مرة للكاتبة الشهيرة جورج [illegible]
ما قدمته لبعض رواياتها تلك الكلمة التي ذكرتها [illegible]
للشعراء . قالت ما معناه : إن الإنسان في الح[illegible]

سجين أربع جدرانه وهو جثته ، يقضي كل سني حياته
فيه على حالة واحدة لا أعرف كيف أنها لا تسوقه إلى
الملل والسآمة . يمشي في غرفته ثم يقف عند النافذة
وبعد ذلك يتناول طعام الصباح ويخرج حتى إذا عاد
وقت الظهيرة تناول طعام غدائه ثم استراح وبعدئذ
يخرج ويعود حتى إذا أقبل الليل نام إلى الصباح فإذا
استيقظ غسل وجهه ثم وقف عند المرآة ثم أطل
من النافذة ثم عاد إلى مثل حركات اليوم السالف وهكذا .

وفي الواقع أن الإنسان ليمل مثل هذه الحياة
الواقفة حتى أنه ليكره أن يرى وجهه في المرآة وحتى أنه
ليتألم من وفاء كلبه له لأن كل هذه الحركات متكررة
مطردة لا يتخللها جديد فلماذا لا يخرج الإنسان
من سجن هذه الحياة الجامدة إلى الحرية المطلقة
من طريق الأسفار .

وفي الواقع أن الإنسان يكتسب بالأسفار من

الفوائد ما لا يمكن أن يدخل تحت حصر لأنه فضلا عن الفرار من سآمة تلك الحالة الجامدة التي ذكرناها تقع عيناه كل يوم على بلدان مختلفة وأجناس متغايرة وعادات وآثار فالعالم في الحقيقة جامعة فسيحة الأطراف السعيد من تلقى علم الحياة عليها بالتنقل فيها، ولذلك نجد أن أكبر الرؤوس التي كتب لها الخلود كانت دائما مغرمة بالأسفار لأنها المعلم المتنقل مع الإنسان في كل أزمان حياته.

ولا شك أن من يسلك هذا السبيل يجد نفسه دائما غريبا عند كل بلد جديد فيدفعه هذا إلى كل وسيلة من وسائل الاتصال بغيره من الناس والإلمام بشيء من لغاتهم والوقوف على أسرار حياتهم وعاداتهم حتى يبتعد عما يجرح عواطفهم لينال حسن القرب منهم وهو فوق ذلك تتجلى لنفسه كل يوم زهرة جديدة من أزاهير هذا العالم الواسع وتنكشف له من أحوال الناس العبر

والسمات وهكذا تهيأ عقله للرحلات حتى يصل للكمال .

فالغرابة حينئذ إذا فطرت نفس السمعاني على التنقل والرحلة إلى شتى البلدان وللغرابة إذا المسافر رجلا قديرا على كشف نقائص النفوس على وصف ما تحتاج إليه من الإرشاد والنصح مما هو ظاهر من خلال ما سطره .

وأكبر دليل على سلامة هذا الرأى الصعوبات التى يلاقيها المسافرون وعلى الأخص السمعاني فما كانت وسائل النقل في عهده ميسورة وهو يجوب أقاصى البلدان نفسها كان عليه من الفقر البين الصبر وقوة العزيمة والرغبة في استكمال نفسه من هذا الطريق الباقى . فلقد زار خراسان وتركستان والتتار وبلخ وكاشغر والعراق العجمى وآذر وتبريز والبصرة والكوفة والواسط وطرابلس الشرق ووبكر والبلدان الواقعة فى أقصى الروم وبلاد المغرب وافريقية حتى بلاد الحبشة التى ذكر وصفها والإسكندرية ومصر . والهند وكذلك ركب البحار ومنها الخليج الفارسى وجزائره

وأوقيانوس الهندي وبحر العرب والقلزم والروم حتى قال
السير مور أرسلي أنه لا يوجد بعد ابن بطوطة في ولعه
بالسياحات غير السعدي، وحتى أن كريم خان زند أقام
على مقربة من شيراز مقبرة معروفة بمقبرة هفتن أي ذات
السبع قبور فنصب على بابها تمثالا نصفيا للسعدي ممسكا
إناء وعلى كتفه سيف وهما إشارتان لكثير الأسفار وقد
صور هذا التمثال المستر كلارك كار الرحالة الإنجليزي
الذي ترجم البستان وألحق هذه الصورة بتلك الترجمة.

وكم قاسى في رحلاته من التعب والحرمان والجوع ومع
ذلك فقد كان عزيز النفس حتى أنه لما كان في بعض أسفاره
بالإسكندرية وقد نشبت فيها مجاعة دعاه أحد الخصيان
المتمولين إلى وليمة في نفر من الفقراء الدراويش فامتنع
قائلا أن السبع لا يفعل ذلك ولو مات جوعا.

وكثيرا ما كانت تضيق به الحال حتى كان يضطر إلى
السقاية كما فعل في بيت المقدس ودمشق كما جاء في كتابه

نفحات الأنس . وربما كانت أشأم الساعات عليه بالكوفة
تلك الساعة التي فقد عندها كل شيء حتى غذائه مما دفع
خياله إلى هذه الحكمة البالغة: أطلب إلى الله أن يرزقني
غذاء فلما دخلت المسجد وجدت عند بابه رجلا مبتور الساقين
فحمدت الله على الحالة التي أنا فيها. وقد جاء ذكر ذلك في
البستان .

ومما صادفه من أهوال السفر في رحلاته أنه
لما غادر دمشق إلى صحراء فلسطين في القرن السابع الهجري
وكانت حرب الصليب الخامسة قائمة أسره الصليبيون
واستخدموه مع يهود بلغاريا وهنغاريا في حفر خندق
حول طرابلس الشرق وبينما هذا الرجل العظيم على هذه
الحالة الأليمة مر به أحد معارفه من وجهاء حلب فتوسط
للإفراج عنه عند أولئك القوم مقابل عشرة دنانير وعاد به
حيث زوجه بابنته بمهر قدره مائة دينار وكانت هذه الحادثة
سببا أيضا في تلك المحاورة الظريفة بينه وبين زوجته

وقد صمم على بيعها لسوء خلقها . فأخبرت تميرة
بأن أباها اشتراه بعشرة دنانير فقال نعم وبايعني
لك بمائة .

ومما يذكر عنه أيضاً أنه لما قصد إلى الهند العالية
تحكم في أهل الهند في مدينة سومنات وكان بها هيكل
وفي الهيكل صنم يعبده الهنود فأخذ بتحطيمه فلاذ الهنود
في عبادة الأوثان فسرعان ما أدركها البرهمن أمره
فكره ذلك السلطان من أحاطوا به وسألوه في ذلك عن
عاقبته وقال إني قريب من ذلك فلما تأخر عنه الرجوع
إلى الحقيقة إذا ما اكتشفوا بصيرة مذهبهم فدخلوا وجاءوا
به إلى الهيكل وأخذوا يعبدونه بالطبول وينفخون في المزامير
حتى إذا أقبل الناس ووصلوا إلى المعبد سجدوا جميعاً لله
الصنم لهم السلطان بنفسه الصنم أخذ يرفع ساعديه
رويداً رويداً إلى السماء فتظاهر بالبكاء وأنه أصبح من
المؤمنين بعبادتهم ولكنه في الحقيقة كان معتقداً أنه في

الشعر شيئا فطلب أن يخلو بنفسه في الهيكل للتعبد وحينئذ أخذ يدور حول جوانب الهيكل فعثر على بوذى خلف قاعدة هذا الصنم الكبير وبيده حبل وهو الذي كان يحرك به هذا الساعد وكان على مقربة منه بئر فألقاه فيها وأهال عليه بعض كتل من الصخور ثم قرر على أن يحطمه بالبكار وتحطيم الصنم ما كان إلا قصصا كما ذكرنا وهو يقول حقا ما ذكره الشاعر البحترى

والصدق إن ألقاك تحت العطب

لا خير فيه فاعتصم بالكذب

ولقد كان من جراء هذه الأسفار الطويلة فوقه ما اكتسبه نفسه من الرياضة وأخلاقه من الكمال ، وعقله من الاقتناع أن ألم بكثير من لغات الأقطار المختلفة حتى أن ديوانه المطبوع في كلكتا جاء في الصفحة ٤٦٣ منه قصيدة موضوعها تقلبات الحمرية . ويسرط للقراء بأسره ويؤكد الى بيان الوحدة بينها بالنط

فوجد الأمم عشرينا ، لهم دول بلغة فارسية . أما في
أبيات القصيدة فبلغات مختلفة لا تقل عن ستة عشر لغة ،
منها التركية الشرقية والمغولية والعربية والكردية ولهجة
أهل فارس وكازرون وآسيا الصغرى وكاشان وكرمان و
وأصفهان وقزوين وخراسان والهند وشيراز والزنجي وليس
يجب عليه الإلمام إلى حد معلوم بهذه اللغات المختلفة ،
حتى أن دائرة معارف شمس توسعت في ذلك حيث ذكرت أنه
كان ملما أيضا بكثير من اللغات الأوربية . ولقد كانت أولى
رحلاته في سنة (٦١٢) أي بعد أن قضى في الجامعة النظامية
حوالى ثلاثين سنة وقد اتجهت هذه الأسفار بصورته الى شيراز
حيث كان الأمن استتب فيها بفضل أميرها أبي بكر فاتح شاه
ابن سعد الزنجي وحكمته وعدله ولما دخلها كان قد سبقه
صيته إليها . فاستقبله أهلها بالكرامة التي تجب
لعظماء الرجال .

٣

عودة السعدي إلى الوطن

(١٤٠)

«عودة السعدي لوطنه»

بعد تلك الغيبة الطويلة عاد السعدي إلى شيراز مسقط رأسه. ومن هذا الذي ينسى وطنه سيما بعد أن زالت عنه المخاوف واستتب فيه الأمن وصلحت أحوال الناس وبعد ما ذاع من عدل أمير شيراز أبي بكر سعد زنجي وتردد على الألسنة ما كان عليه من الإصلاح والرحمة والعدل. وهكذا هزه الشوق وهاجه الحنين فعاد من الشام إليه على طريق العراق العجمي متجولا في أصفهان.

ولقد كان عمره وقتئذ حوالي ٧٢ سنة وهو شيخ كثيف اللحية قليل الجسم نحيله. وربما كان من الصواب أن نرصد هنا ما ذكره هو بصدد هذه العودة قال «١- أتدري لماذا تقاذفت بي الهموم كل هذا الأمد الطويل في بلاد الاغتراب؟ ٢- إنني فررت من غوائل الأتراك لأنني رأيت البلاد مختلفة متجعدة تجعد شعور أهل الحبشة(١) ٣- حقا إنهم جميعا كانوا من سلالة آدم وحواء ولكنهم كانوا في التوحش والافتراس لا تقل أظافرهم في حدتها عن أظافر الذئاب والسباع ٤- ترى الناس في أكناف

---

(١) ربما كان هذا التشبيه لا يأتلف مع الذوق العربي ولكنه أسلوب مقبول في اللغة الفارسية والمراد التشبيه هنا الاضطراب والتفكك.

من المنهم إخوانه الملائكة في طهارتهم وشمائلهم وبسط عنه غزاة الفتنة
سوى - فلما أسعدتني الأوبة إلى الوطن وجدته هانئاً مطمئناً حيث أقلعت السباع
عن طبائع وحشيتها -6- وكنت عندما شاهدته سابقاً كانت مصابيح سرائر
وحبال الأمن مقطوعة ومعالم الراحة والسكون مطموسة -7- أما اليوم فقد
تحول ذلك البلاء نوراً وهدوءاً وسروراً في ظل الملك العادل أبي بكر ابن سعد زنكي.

ولقد أسلفنا فيما سبق أن شهرة السعدي كانت
سبقته إلى شيراز وعطرت جوها وملأت نفوس أهلها
فكان مقتضى ذلك أن يكون له بعد عودته إلى شيراز المقام
الذي يتناسب مع علمه ومع تلك الشهرة الواسعة ولكنه
مع ذلك انزوى عن عيون الناس وعاش عيشة الدراويش
الفقراء.

ولقد كان أبو بكر مع ما ذكرناه عنه من محامد الصفات غير
ميال إلى العلماء يمقتهم ويشتط عليهم بسبب الخوف والحسد
حتى أنه نفى منهم نفراً كثيراً نذكر من بينهم الإمام مجد الدين
محمد الواعظ والإمام شهاب الدين ومولانا عز الدين

براهيم كما أنه صمد بعضهم في أمواله كالقاضي عز الدين
لوي من أعيان السند وقاضي القضاة وقتئذ وكما أنه
جه الأديب الكبير سعيد عميد الدين أحمد وزيد الأمير
حمد الزنجي من إحدى القلاع حتى قضى بها .
وعلى عكس ذلك كان الأمير أبو بكر يعرب عن البداهة
يعطف على الفقراء والمساكين ويجري عليهم الأرزاق
كثيرة وهو كثير الاعتقاد بهم إلى حد لا يوصف حتى أنه
الجهلة مرة ظهر في زي أولئك الدراويش وتقدم
به فبالغ في إكرامه والاعتقاد به حتى إذا مات صلاة
غرب قدمه للإمامة فأطاق تلاوته ولكنه مع ذلك
ن اعتقاده فيه .
هذا المسلك الغريب الذي سلكه ذلك الأمير في
لعلماء وذوي الفضل ودفعهم إلى الانكماش وعدم
ظهور . ولسنا في معرض البحث عن الحامل للأمير على
ضطهاد أهل الفضل والعلم إلى الحد الذي ذكرناه .

والعلماء في كل مكان مصابيح الهداية والإرشاد والإصلاح . ولا يبعد أن أحد العلماء في عصره ظهر مظهر خداع كرههم في هذه الطبقة كلها كما حصل لبعض أو غلى الشعوب تماثله بأول شارع خيرت بمصر في حالة قريبة من هذه بناء على ما سمعته من أحد أفاضل إخواننا المصريين وتقرير الخبر أنني رأيت بالطرف الغربي من شارع الشيخ يوسف (الذي به بناء البرلمان) قبتين فوقهما قبرين على امتداد الطريق الموصل لمستشفى القصر العيني وقد سألت عنهما فقال أحد المصريين إن إحداهما لبعض أولياء الذي سلف ذكره والثانية للآخر اسمه الشيخ يوسف وقد سمي الشارع السالف باسمه ولدفنه إلى جانب الأول وعلى قصة غريبة : وهي أنه حين كان (محافظ) للقاهرة وكان هو عابر فضاء بلغه من أحد الناس أن ذلك

الى ساقية مهجورة على مقربة من جدار منهدم وأن اللصوص اعتادوا سلب الناس ثم إلقاءهم بعد قتلهم فى تلك الساقية وأن الى جانب ذلك الجدار درويشا اعتاد أن ينبههم الى كل قادم . وعلى أثر هذه الشكوى حقق للاظ أوغلى ذلك بنفسه وقبض على كل اولئك اللصوص وعلى ذلك الدرويش كما أنه جمع كل الدراويش الذين على شاكلته وأمر بشنقهم جميعا . وكان كلما استصرخ اليه اولئك الفقراء (المشايخ) علوه العذ نهم على إظهار كرامة تدل على أنهم من أولياء الله وهكذا اشتغلوا جميعا إلى هذا المدفون معهما الشيخ يوسف . إذ يقال أنه أظهر الكرامة كانت سببا فى اعتقاده فيه والتوصية بدفنه الى جانبه . وقد نقل الراوى لى هذه القصة عن المرحوم محمد بك عزت باشمهندس وزارة الأوقاف سابقا .

وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أم غير صحيحة فإن من الحوادث على كل حال ما يبرر مثل عمل للاظ اوغلى

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الأمير أبي بكر على ما تقدم .

وهنا يصح أن نتساءل هل لسلك هذا الأمير صلة بالتماس السعدي كفيره والالتحاق بالدراويش الذين كانوا محل عناية الأمير وإكرامه ؟

وهل السعدي من عشاق المظاهر يؤثرون التقرب من الملوك على أية صورة من الصور . فلما رأى أن ظهوره بما يتفق مع مقام الملك يجر عليه بعض الأمير محمد إلى الظهور في ثوب أولئك الفقراء حتى لا يحرم من تلك العناية وذلك الإكرام ؟ لا نظن ذلك لأن أقل ما في الأخذ بهذا الرأي هو اتهام السعدي بحب نفسه إلى حد يؤثره على نفع الناس من جهة وبالجبن عن الظهور في ثوبه الحقيقي خوفا من غضب الأمير من جهة أخرى .

وربما رأى السعدي أن ظهوره بهذا المظهر يجعل نبقى الأمير لرأيه فيحول دون غرضه من الإرشاد وإرشاد الناس ولذلك تدروش حتى يصل إلى تلك الغاية المحمودة

من هنا الطريق.

ولكن الذى نرجحه أن السعدى لم يكن فيما أظهر متصنعا ولا متكلفا لأنه رجل عرفنا من مأثوراته أنه كان أكثر الناس بعدا عن الزهد حتى أنه كان يفضل الرجل العاصى الذى يخشى الله على التقى الذى يباهى بزهده. ولعل هذا الشعور كان ثمرة تلك العظة الأولى التى وعظه أبوه بها حين زجره لما رآه يفاخر النائمين بيقظته وهو يقطع الليل بتلاوة كتاب الله. نعم إنه كان يقول: إن كل شخص مولود لعصره أما السعدى فقد ولد للأبدية. ولكن الجهر بمثل هذا الفخر كان مألوفا فى أسلوب كتاب الأعاجم بغير استثناء. حتى أن السعدى ما كان يغفله فى نفس حالات تواضعه لله «يا سعدى بعد أن عزوت العالم بسيف بيانك فاحمد الله على ذلك فتلك نعمة من نعم السماء عليك».

ومع ذلك فكما يدل ظاهر ذلك على الزهو فهو يدل أيضا

على الجهر بفضل الله ونعمته «وأما بنعمة ربك فحدث»

وإذن فاتجاه السعدي نحو العيش إلى جانب الفقراء من الدراويش ما كان مظهراً مقصوداً وإنما لأن نفس السعدي كانت نفساً قانعة زاهدة لا تميل إلى زينة الحياة الفارغة وزخرف الباطل وحادثة الخصي الاسكندري التي مرت بنا خير دليل على ذلك.

ومع ذلك فإن السعدي كان كثيراً النصح للأمراء في ظروف كثيرة جريئاً عليه في كثير من المواضع وهذه الجرأة وهو درويش فقير ربما كانت أشد من جرأته وهو عالم له من علمه جاه وقوة يستند عليهما.

وزد على ذلك أن أشد ما تتعرض له النفوس هو الحرية في الرأي والصراحة في القول سيما مع من كان كذلك الكبير في حقده على هذه الطائفة المضطهدة ومع ذلك فإن السعدي ما خانته شجاعته يوماً على ما كان فيه من ضعف وحاجة فلم يبال أن تغرق سفينته سلامته في

هذا البحر الخضم المتلاطمة أمواجه المظلمة العاتية. وقد
غرقت فيه من قبل سفن أخرى وهو الذي اشتهر عنه زهده
في الحياة واحتقاره إياها وتصديه لواجب النصح والإرشاد
والاستماتة فيه.

ومع ذلك فقد وقع من قلب الأمير موقعا لم يبلغه
غيره حتى زاد احترامه له واعتقاده فيه ولعل السر في ذلك
أسلوبه الرشيق الذي كان يسحر به النفوس وأنه كان
إذا كان ضمنه إياه من الآراء عرف كيف يجد لنفسه طريق
الخروج منه مهذبا ولا يتصدى لهذا الطريق الوعر
إصالة، وإنما استبقاء للفرصة حتى يصل الى غرضه من
طريق آخر وفي فرصة أخرى. وهكذا كان يقص عليك
الأقاصيص عن الملوك الذين بادوا واندرسوا معرضا فيها
بالملوك الحاضرين. والجلستان والبوستان يفيضان
بذلك فمطلع الجلستان: إن أحد الدراويش اتخذ
من إحدى الغابات مسكنا ومن أوراق أشجارها قوتا،

فزاره مرة أحد الملوك حيث عاد به إلى المدينة وأنزله في قصر منيع ووفر له أسباب الهناء والنعيم وشهي المآكل وفاخر الثياب وخصص بعض حسان الجواري لخدمته فما أسرع ما تغير خلقه وفسدت نفسه. وقد ظن الملك أن هذه هي خير السبل في إظهار الحب لمثل هذا الرجل ولكن وزيره العاقل الحكيم اعترض عليه قائلا أن من هذا الإكرام والانعطاف العلماء حتى ينقطعوا إلى التصنيف والتدريس هادئين مطمئنين وليس الزهاد الذين يحول هذا الترف بينهم وبين عبادة الله.

وهناك قصة أخرى أكثر انطباقا على حالة أبي بكر وهي: أن ملكا من الملوك واجه مشكلة جسيمة خطيرة فنذر أنه لو خرج فائزا منها لوهب الزهاد مالا كثيرا فلما كان ما أراد أعطى لخادمه صرة من النقود ليوزعها على الزهاد براً بما وعد وإيفاء بما نذر. وكان الخادم ذكيا عاقلا فعاد له في الغد ومعه تلك الصرة.

فأعلن إنني لم أعثر على زاهد واحد مع شدة بحثي فاحتد عليه الملك ورماه بالرشاوى والهدى وهو يعلم أن هناك من لا يقبل عن أربعمائة زاهد فأجابه الخادم بأدب أن الذين ذاقوا طعم الزهد الصحيح لا يقبلون شيئاً من هذا المال أمامه يضيعونه فليسوا منهم فلما سمع الملك ذلك لم يتمالك نفسه عن الضحك وهو يقول " بقدر ما أحب هؤلاء الزهاد يبغضهم هذا الشيطان ولكنه لم يتجاوز حدود الصدق فيما قال ".

وأمثال هذه الحكايات كثير ، ومن ذلك في الجلستان قصة أخرى ربما كانت أوضح في أسلوب السعدي الجدلي وقد أجاد في تصوير مساوئ السلاطين ورياء الدراويش فأقام من نفسه مدافعاً عن الملوك يحاور أحد الفقراء مدافعاً عن الدراويش وهكذا أخذ خصمه يؤيدهم ويذم الملوك والأغنياء في حين أن السعدي يشدد النكير عليه وعليهم ويأخذ بناصر الملوك وهو في كلتا الحالتين دامغ الحجة ، قوي

البرهان سواء عن نفسه أو على نفسه وهي مناظرة فريدة إلا أنه أراد بطاقة المساواة بين هذين الطرفين وأصلا وجهها. ولقد ولد حبوب الملوك في نفسه اتجاهاتها الصالح البشرعامة حتى أنه حين قصد إلى تبريز بعد الحج واجتمع هنالك بعلمائها وفضلائها أراد أن يزور خواجه شمس الدين جويني صاحب الديوان وأخاه الصغير علاء الدين جويني من وزراء أباقاخان ابن هلاكو خان وكان هذان الوزيران من المحبين والمعتقدين فيه وبينما هو في طريقه صادف موكب أباقاخان وهو بين وزيريه فأراد أن ينتحي الطريق جانبا ويعود ولكن الأخوان عرفاه فنزلا في الحال عن فرسيهما وأقبلا عليه يقدمان له تحية الإجلال والإكرام بتقبيل يديه وقدميه فلما شاهد الملك ذلك قال لحاشيته لم يحترمنا شمس الدين وأخوه يوما احترامهما لهذا الشيخ العابر السبيل فمن تراه يكون؟ ولكن لما علم من وزيريه أنه السعدي الذي طارت شهرته في الآفاق

طلبت نفسه أن يتعرف به فاستصحباه يوما إليه حتى إذا استأذن للانصراف سأله الملك بعض النصائح فقال له: اعلم أيها الملك أنه لن يصحبك إلى العالم الثاني إلا الحسنات أو السيئات فلك أن تتخذ منهما الرفيق الذي تريد وقد نظم ذلك له في الحال كطلبه في هذه القطعة المشهورة «إن الملك الذي يسهر على رعيته حلال له ما يأخذه منها أما الذي ينام عنها فإن ما يحصله منها بغيض في عين الله». وعند ذلك سأله أباقاخان في أي مكان منهما تضعني فأجابه «إن كنت من الساهرين عليها فملك البيت الأول وإلا فإنك في البيت الثاني».

وما كانت جرأة السعدي هذه في الحق إلا لترفعه في عين الملك حتى بالغ في إكرامه وهو نفسه يقول في الجلستان «لا يكون أحد جريئا على نصح الملوك إلا إذا كان لا يخاف على عنقه ولا يطمع في المال».

ولقد صادف مرة وهو بجامع دمشق أحد ملوك

العرب الظالمين فقال له حين استنصحه بما يظفر به على عدوه.

"كن رحيما بشعبك الضعيف تصبح قويا على عدوك العنيف"

وهكذا نرى أن السعدي ما كان جريئا على الأمير أبي بكر فحسب بل على كل من يصادفهم من الملوك مما يدل على ذلك الاتجاه العام في النصح حسبما ذكرنا.

ومع ذلك فقد كان السعدي أيضا يفيد مما آتاه الله من العلم والحكمة كل من يقصدونه حيث كان لا يبخل عليهم برأيه كتابة أو شفاها. ومن ذلك أنه على سبيل

المثال أحد فضلاء شيراز قصده يوما وسأله أيهما المرشد للسالكين العقل أم الدين. ولما كان هذا السؤال هاما اضطر السعدي أن يرد عليه في رسالة خاصة طويلة مما يدل على اهتمام ذلك العصر بالمباحث الرفيعة، وعلى مكانة السعدي منه حتى كانوا يعدونه كعبة العلم والحكمة يحجون إليها.

وقد كان السعدى يجمع إلى أسلوبه الساحر الذى وضحناه ، خفة روح منه مولعة بظريف المزاح وقد ذكرنا فيما مضى ما كان من أمره مع زوجته ابنة ذلك الحلبى ونزيد على ذلك أيضا من طريف الفكاهة أنه دخل مرة حماما بتبريز فاجتمع فيه مع الشاعر همام التبريزى أحد تلاميذ المحقق الطوسى وما كان رأى السعدى قبل فسأله عن اسم بلده فلما أجابه السعدى أنه من سكان شيراز قال إن من المدهش أن أهل شيراز كثر عددهم فى تبريز حتى أصبحوا أكثر من الكلاب فأجابه السعدى ولكن التبريزيين فى شيراز أقل من الكلاب .

خصوم السعدى

نستبعد بعد هذا إقبال الناس على السعدى وهو أمير البيان وظريف اللسان ، ومع ذلك فما كان يخلو من خصوم . وقد كان لناصر الدين الطوسى وهو رياضى كبير ، وكان يأنس ههلاكو لاستشارته تلميذان

فى مركز سام ببلاط شيراز وهما عزيز الدين أومانى "

وهمام الدين التبريزى سالف الذكر فهذان التلميذان

كانا من أشد خصوصه وعلى الأخص الأخير منهما حتى

أنه كان يقول " إلهى أنزل رحمتك على الطيبين من عبادك

وحل بينهم وبين الأشرار أينما حلوا وعلى الأخص فى

شيراز " وأيضا " إن الجدار من أكبر النقائص فى عين

الحقود وتلك السعدى إذا كان وردة فإنه شوكة فى

عيون من خصومه " .

(مذهب السعدى)

ويظهر أن السعدى كان سنيا يحترم الكتاب والسنة

ويحتقر من لا يحترمهما كما حصل للأئمة الإسماعيلية

ومع ذلك فإنه كان غير متعصب وكثير التسامح يقول " بأن

المسلم وغير المسلم لهما أجرهما عند الله " أما المجوس

فإنه كان لا يتصورهم ويباعد بين الناس وبينهم لأنهم

ليس لهم دين ولكنه كان يأخذ على المسيحيين قولهم بالتثليث

لأن ذلك فى عينه شرك بالله كما ورد ذكر ذلك فى البستان.

وربما قام هذا التسامح على تأصل فى نفسه من جذور الرحمة والشفقة مع الناس عامة حتى أنه كان يقول: "ليس لى من أمل فى هذه الحياة إلا أن أعمل على إسعاد البشر".

ومع ذلك فإننا نراه فى صاحبنا نشديد الوطأة على المسيحيين ولكن هذا لا يحولنا عن الأخذ بما صرح هو به من ذلك التسامح والبعد عن التعصب الذميم أولا: لأن من يجلد فى مقامه وفى موقف كهذا أبعد الناس عن مناقضة نفسه بنفسه. ثانيا: أنه ربما كان الحامل له على ذم المسيحيين بعد تسامحه السالف ما كان من أمرهم فى القرن الثالث عشر مما أثار الحروب الصليبية بين الشرق والغرب وجعل ذلك القرن مخصيبا للريا. وقد علمنا ما عاناه هذا الرجل العظيم فى الخشنة الذى دفعوه إلى العمل فيه مع أحقر الناس

استبدادا وعتوا على ما سلف ذكره حينما تكلمنا عن جهلائه .

— ((شيخوخته)) —

ولما بلغ السعدى سن الشيخوخة وكان كثير الإطراق والتفكير انصرف عن الناس إلى العبادة فى المدرسة المسماة بالخانقاه وقضى شطر حياته الأخير فيها حتى فاضت روحه ودفن بها . وكان سبب إنشاء هذه الخانقاه أن علاء الدين الجوانى كان أرسل إليه خمسين ألف دينار اعتذر عن قبولها فلما ألح عليه صرفها فى هذا السبيل . وقد كان قبره كعبة يحج إليها الناس من جميع الأصقاع تيمنا بهذا الرجل العظيم حتى أن بعضهم كان يوصى بأن يدفن إلى جانبه ومنهم الشاعر الشهير ((حافظ الشيرازى)) الذى دفن على مقربة منه بعد قرن من الزمان .

ولقد زاره الرحالة الشهير ابن بطوطة وكثيرون

غيره منهم الرحالة الإنجليزي الشهير وليم فرنكلين الذي ساح في بلاد الفرس ١٧٨٦ م والسير جور أوسلي وقد نقل الأخير عن رحلة وليم فرنكلين نرصده هنا لأهميته من حيث وصف المقبرة ومقام السعدي المدفون بها قال "تقع مقبرة السعدي على بعد ميل من شيراز شرقا بسفح الجبل وهو بناء مربع الشكل والقبر من الحجر ما بين ستة أقدام في قدمين ونصف مغطى بغطاء أسود مزركش مكتوب عليه شعر للسعدي نفسه كما أن حيطان المقبرة تلاحظ فوقها بالنسخ ما يتعلق بحياته ومصنفاته وكثير من المسلمين الذين يقصدون هذا القبر مثلا للأصقاع ينثرون فوق الورد والأزهار وفي ركن من هذه المقبرة نسخة من كلياته بخط جميل أعدت لمطالعة الزائرين وهو أيضا المدفن مسودة بالأبيات الفارسية من يد أولئك الزوار ولكن بناءها آخذ في التهدم يوما بعد يوم وبغير أن يهتم أحد بإصلاحه . وبجوار القبر عشرات القبور

للرجال من أهل التقوى الذين اوصوا بنقل رفاتهم اليها.

ويجدر أن ننقل ما سلف بقول السير جور اوسلي
«إنني في أوائل ١٨١١م عندما عينت سفيرا من قبل جلالة الملك جورج الثالث لدى فتح علي شاه قاجار. وكنت حاملا أوراق تعييني فمكثت بضعة أشهر في شيراز في طريقي الى طهران وهكذا أخذت أتردد على قبر السعدي مما أكد لي رواية المستر وليم فرنكلين عنه من الواقع أن هذا القبر أصبح الآن باليا على وشك الانهيار والحديقة وأشجارها التي كانت حول تلك المقبرة في الأزمان السالفة أصبحت الآن لا أثر لها فخطر لي أن أتولى أنا إصلاحه على نفقتي لإعجابي بمقدرة السعدي ومكانته ولكن حال بيني وبين ذلك الولد الخامس لشاه إيران الذي كان حاكما على شيراز وقتئذ بحجة أنه سيتولى إصلاحه بنفسه كما أصلح كريم خان زند مقبرة خواجه حافظ الشيرازي ولكنه لسوء الحظ

لم يفصل ولذلك يملؤنى الألم والأسى كلما فكرت
أنه سوف لا يبقى هنالك أى أثر لهذا القبر يهتدى به
الناس إلى مرقد ذلك العبقرى الذى يحق لإيران أن
تفاخر به . وقد نال فى دولة الشعر والأدب مكانة لا
يطمع فى مثلها أحد » . انتهى كلامه .

وربما يعجب المتأمل مما جرى للعاديات والآثار فى
الشرق وكيف أنها لم تقو على صروف الدهر فى حين أن
الغرب على همجية أبنائه فى القرون الوسطى لم يبرح محتفظا
بجميع آثاره . وهذه بولونيا فإن فيها أقدم كلية بأوربا قائمة
على أمتن الدعائم ولا علة لذلك فيما أحسب إلا أن
معظم حكام الشرق جهلة لم يريدوا أن يشاهدوا آثار
أسلافهم ويشق عليهم إلا أن يستأثروا دونهم بالصيت
البعيد فكلما ولى أحدهم لا يأبى من العمل أكثر من طمس
اسم سلفه ليحل محله اسمه ولو قدر الملوك السالفون
أن يهدموا الأهرام وغيرها من الآثار الباقية على الأدهار

لما قصروا ساعة وعلى العكس في الغرب فإن المتأخر يصلح ما بدأ به المتقدم وهكذا حتى يستقيم الحال فسبحان من كتب على الشرق أن يفني بآثاره ورجاله وعلى الغرب أن يحيا بهما .

إذن ليس عجيبا أن يهتم السير جور اوسلي لأمر هذا القبر ويتألم لما أصابه مع ما بينه وبين السعدي من البعد من شتى الوجوه لأن هذا العجب يزول متى أدركنا أن العلم والأدب لا وطن لهما وأنهما متاع شائع بين الناس على مختلف أجناسهم . ولكن مما يؤلم حقيقة أن يتصدى السير جور اوسلي إلى إصلاح هذا القبر تخليدا لذكرى السعدي وكان أمير شيراز أولى منه بذلك . أما وفاة السعدي فقد كانت في عهد أرغون خان بن أباقا خان بن هلاكو خان (عندما استتب الأمر للتتار في شيراز وفارس) سنة ٦٩١ أو سنة ٦٩٥ وإلى من العمر مائة وعشرين سنة كما قدمنا .

٤

شهرة السعدي حيا وميتا (٦٢)

حياته (٦٢) ـ أسباب شهرته (٦٢) ـ ذيوع صيته في مختلف الأصقاع (٦٤) ـ آراء الكتاب والشعراء فيه (٦٥) تسامحه من دواعي شهرته (٦٨) ـ شهرته بعد موته (٧٠) ـ اهتمام أوروبا بالسعدي (٧٠) ـ أسباب شهرته في أوروبا (٧٠) ـ رأي كتاب أوروبا وفلاسفتها في السعدي (٧٠) ـ الموازنة بين السعدي وبين هوراس ـ آثاره والشرق والغرب (٧٢)

شهرة بعض مشاهيرنا

(١)

قليل من الذين كتب لهم فى الزمن القديم أن يكونوا من عظماء الرجال من لذيذ الشهرة حياتهم وذاقوا الحمد قبل موتهم . بل أن كثيراً منهم من لم يعرف قدره إلا بعد وفاته بزمن طويل وقد يكون ذلك لأن العصر الذى كانوا فيه كان عصر جهل لا يزن قيمة المتبرزين فيه من الناس أو عصراً من عصور الحقد عليهم يفرط لهم فى إهمالهم ونسيانهم كما كانت الحال مع بلزاك الكاتب الفرنسى الشهير الذى لم يعرف مقداره إلا بعد عشرين سنة من موته حيث أدرك أبناء الجيل الذى أعقبه أنه أحد الناس بالعظمة وأولاهم بالخلود فبعثوا شهرته من مرقدها وأطلقوا عليه اسم "أب المآسى البشرية" *Père de la Comédie humaine*.

ولكن العصر يعد فى مقدمة من نالوا تلك النعمة الجزيلة فى حياتهم حتى طار صيته فملأ أنحاء إيران وتركستان والهند والعرب وغيرها من الأصقاع . ولهذا أشار إلى ذلك

شهرة السعدي في حياته

(١)

قليل من الذين كتب لهم في الزمن القديم أن يكونوا من عظماء الرجال من لذت الشهرة حياتهم وذاقوا المجد قبل موتهم. بل إن كثيرا منهم من لم يعرف قدره إلا بعد وفاته بزمن طويل وقد يكون ذلك لأن العصر الذي كانوا فيه كان عصر جهل لا يزن قيمة النبوغ فيه من الناس أو عصرا من عصور الحقد عليهم يغمط لهم فضلهم وينساه كما كانت الحال مع بلزاك الكاتب الفرنسي الشهير الذي لم يعرف مقداره إلا بعد نصف قرن من موته حيث أدرك أبناء الجيل الذي أعقبه أنه أجدر الناس بالعظمة وأولاهم بالخلود فبعثوا شهرته من مرقدها وأطلقوا عليه اسم «أب المآسي البشرية» *Père de la Comédie humaine*.

ولكن السعدي يعد في مقدمة من نالوا تلك النعمة الجزيلة في حياتهم حتى طار صيته فملأ أرجاء إيران وتركستان والهند والعرب وغيرها من الأصقاع. ولقد أشار إلى ذلك

فى مقدمة جلستانه وذكر كيف أنه اسم كان يتردد على أفواه كل الطبقات فى كثير من البلدان وإذا دلت آثاره على أنه كان يهيم بإشارة الناس بفضله والتغنى بذكره فإما أن يكون مرجع ذلك إلى أنه بشر كالناس يهزه الطرب كما يهز المديح الملوك وإما أن يكون لأنه كما قدمنا اعتاد أن يتحدث بنعمة الله عليه .

نعم إن السعدى كتبت له المقادير حياة الخلود فى نفس حياته الفانيه ولا غرو فإن تكوينه واستعداده وما حصله من أسس العلم والأخلاق عن أبيه وأساتذته فى النظامية وما اكتسبه فى رحلاته من مخالطة الناس ودراسة أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم وما قاساه من ظروف العيش كل ذلك جعل من هذا الرجل العادى رجلا خاصا من رجال العلم النادر والإرشاد الصحيح والحكمة العالية . جعل منه رجلا بعيد النظر سريع الملاحظة دقيق الحكم منتقد الخاطر . وفى آثاره كثير من الشواهد الدالة

على ذلك . وقد ذكرنا منذ سرعة جواب علي امرأته حين عيرته بأن أباها اشتراه وكذلك نذكر هنا ما كان له مع الغلام الذي صادفه في كاشغر :

كان ذلك الغلام يدرس مقدمة الزمخشري فسمعه السعدي يردد مثال : ضرب زيد عمرا ؛ فقال له على البديهة وهو [illegible] الصلح بين [illegible] وخوارزم فما بال زيد وعمرو لا يزالان يتخاصمان ويتضاربان » .

ولقد ذكر فيما مضى كيف أن شهرة السعدي سبقته إلى كاشغر قبل أن يصل إليها

[illegible] الشعر المعروف [illegible] الرباعية الظريفة التي [illegible] إقبالا فلما [illegible] وسروره به وأهداه [illegible] شهرته السلطان [illegible] إلى [illegible] فحمل [illegible] حكمة [illegible]

وإذا أردت أن تقف على قيمة السعدي في أثره فاقرأ
ما ذكره عنه كثير من الكتاب والشعراء

فلقد ذكر دولتشاه :

"لقد رفع لواء الشعر ثلاثة من الأنبياء ولو أن الحديث
جاء "أن لا نبي بعدي" وهؤلاء الثلاثة هم نبي المثنوي الفردوسي
ونبي القصائد الأنوري ونبي الغزل السعدي"

وعبد الرحمن الجامي يفضل السعدي على الأمير خسرو
الدهلوي من حيث الإقبال العام على كلامه ومن حيث
ذيوع صيته وشهرته وهو الذي يقول في هذا الصدد :
"ولقد طلب الأمير خسرو من الله أن يشعر مثله فامتنع
لأن هذه النعمة اختص بها السعدي وحده."

على أن الأمير خسرو نفسه يشهد في مثنويته
بالفضل للسعدي وهمام التبريزي وتفوقهما في كمال الأسلوب
الغزلي. وإذا كان قد أشار من طريق خفي إلى ترجيح نفسه

عليهما في باقي أنواع الكلام الأخرى وهو ترجيح لا يصدر عن رجل كبير أجدر بالتواضع وأبعد عن الحكم على نفسه وترك الحكم عليه لغيره - فإنه مع ذلك يباهي في بعض شعره ويمدح أسلوبه مدحا مطلقا بغير تقييد ومن ذلك قوله فيه:
«لئن تمايل خسرو سكرا فقد ملأ كأسه من معنى تلك الراح التي نعمت بها شيراز»

وكذلك الأمير حسن الدهلوي الذي كان يسميه معاصروه سعدي الهند فإنه أيضا كان يفتخر باتباع خطوات السعدي وهو الذي يقول:

«لم يجن حسن هذا الورد إلا من حديقة
السعدي وكل المولعين بأطايب المعاني
يقطفون وردها من هذه الحديقة»

ولقد طلب أربعة من أجل الفضلاء هم خواجه شمس الدين أمين معين بروانه حاكم الروم وملك افتخار الدين الكرماني وملك نور الدين الصدري إلى خواجه مجد الدين همر

الذى كان معاصرا للسعدى أن يحكم بينه وبين إمامى الهروى فأجابهم إلى ذلك بهذه الرباعية :

" إذا كانت فصاحتنا كالتغريد من البلبل فان "
" منطق السعدى كالعسل من النحل ولكنى لست أبلغ "
" أن السعدى مرتبة الإمامى فى الشعر "

وهو فى هذه الرباعية يسلم بتفوق السعدى عليه ولكنه لا يصل به إلى درجة الإمامى .

ولكن الحاج لطف عليخان قال فى معرض الرد على ذلك ما معناه : " لقد اختلف بعض الأدعياء من الشعراء إلى مجد الدين همجر (الذى لا ثانى له فى انحطاط الطبع) ليحكم بين السعدى والإمامى فأنشأ لهم رباعية حين وقعت عينى عليها حمدت الله على أنه لم يتردد أحد من رجالات عصرنا فى تفوق السعدى على الإمامى حتى نصح المفاضلة بينهما " ولقد زاد على ذلك " إن مجد الدين لم يتخط الحقيقة فى التسليم بتفوق السعدى عليه أما

الإمامي، ومن الطبيعي أن تؤخذ منه السعادة ويجيز له إذا أراد
أن يؤلف بينه وبين السني وعدمه

ومع ذلك فلو أن عبد المحسن الكاظمي كان قد عاصر
عصر الشيخ السعدي قرنًا أو نصف قرن لما اجترأ على التفاخر
بينهما على الوجه الذي ذكره في رباعيته ومع أنا ما
للسعدي بعد موته منذ أن ذاع بالشهرة في كل قطر من الأقطار
فهمت أن الإمامي قد ذهب شأنه بغير أن يذكره أحد
ولا [illegible] شهرته بعض صفحات الكتب المخزونة في المكاتب
ولكنه تعصب عبد المحسن ذاك الحب للسعدي لما بلغ به دعا
به إلى الخروج عن ذلك الاعتدال الذي انفرد طيلة
أيام السعدي حيًا وميتًا

وربما كان من عوامل شهرة السعدي محافظته على
نفسه من الشاعر كما أشرنا إلى ذلك بإيجاز عند الكلام
عن عودته إلى شيراز ولكننا نقصد هنا أنه عنه

السير جور اوسلى كما استخلصه من كتاب مجالس العشاق فقد قال ما معناه : إن الحكيم نزارى القهستانى من أكبر شعراء خراسان وحكمائها والمتشيعين للمذهب الإسماعيلى تقابل يوما مع السعدى بأحد حمامات شيراز ولما علم السعدى به سأله إذا كان من يعرفون السعدى معروف بين أبناء وطنه فقال نعم وإن أهل خراسان صغيرهم وكبيرهم يتغنون بذكره وإنه هو نفسه يحفظ له بعض شعر أخذ يتلوه أمامه فسر من ذلك سرورا كبيرا وكشف له عن نفسه فأكبره هذا الإسماعيلى واستضافه .

وهذه القصة كغيرها لا تبين لنا شهرة السعدى فى جميع الأقطار فحسب بل إنها تدلنا أيضا على علو تسامحه وبعده عن ذميم التعصب مع أن الإسماعيلية كانوا وقتئذ يعدون من الملحدين اللادينيين ولم تكن فرقة من الفرق أبغض منها إلى المسلمين . ونخرج مما ذكرنا أن السعدى كان من حسن حظه أن طبق شهرته بعده فى حياته

أما بعد موته فقد طبقت شهرته الآفاق حتى أن الناس كانوا يحجون إلى قبره كابن بطوطة والسير جوراوسلى وغيرهما ويوصون بأن يدفنوا على مقربة منه وحتى أن شهرته انتقلت إلى اوربا فعرف قدره كتابها ومفكروها وأخذوا ينقلون كتبه إلى لغاتهم فمن بترجمة جلستانه بفرنسا العلامة أندريه دوربيير في ١٦٣٤م. وبألمانيا الحجة اوشنباخ وبأمستردام المستشرق الشهير جنيتوس وقد ارفقوه بترجمة عنه ترجمة أخرى باللغة اللاتينية. وقد ألحقنا في آخر هذه المقالة جدولا مفصلا لمؤلفات السعدى التى عنى الغرب بطبعها وترجمتها أو شرحها....

وربما كان أساس شهرته في تلك الأقطار اتفاق أسلوبه الكتابى والخيالى مع أساليب كتابها أما تلك الأساليب الغزيرة الموجزة حتى أن رينان الفيلسوف الفرنسى الشهير وصاحب «حياة اليسوع» لم يفته ما في أسلوب السعدى من تساند العقل الرجيح مع التصور السامى والفلسفة

الدقيقة مع سلامة الذوق والسمو بالأخلاق على طريقة عملية واضحة فقال عنه: « إن السعدي في الحقيقة رجل منا » بل زاد على ذلك أيضا: « أنه ليس منا فحسب بل أن مواهبه النادرة جديرة بأن يكون للعلم والأدب نصيب كبير من ميراث قلم صاحبها ».

على أن باربييه دي مينارد الكاتب الشهير ذكر عنه أيضا:

« إن كثيرا من مأثورات السعدي يذكرنا بفقه هوراس وهو وقيق رشيق كأوفيد ومتحمس ساخر كرابليه وبسيط سهل كلافونتين ».

وربما اقتضى هذا المقام أن نوازن بينه وبين أحد هؤلاء ولكن هوراس فإن تقاربهما ليس فقط في بعض ما جاء على لسانهما بل أيضا في وجهة نظر كل منهما وكلاهما يرمي إلى ضرورة إسداء النصائح للناس على أسلوب عملي ومن ذلك قول هوراس عن الحكيم أنه ملك

الملوك وقول السعدي عنه أنه ملك النفوس والسعدي هنا أعم من هو راس كما هو ظاهر.

وكيف لا يهتم اولئك المهرة في تحليل النفوس وآثارها بالسعدي وقد كان أساس حكمته أن يحرك النفوس بلا شيء، وأن يخضع لحوادث الزمان بغير شكوى وأن يواجهها بدون خوف وأن يقنع بالقليل ويزهد في زخارف الحياة الباطلة. هذا هو الذي كان دعامة شهرة السعدي في كافة الأقطار وعلى الأخص في بلاد اوربا.

	اسم المؤلف	شرحه	ترجمه	طبعه	اسم من شرحه او ترجمه او طبعه	اللغة المترجم	المدينة التي طبع فيها الكتاب	تاريخ الطبع
٥	الرسالة الثانية				M. Giord Allen		Bresla	١٨٨٨
٦	بوستان				K. H. Graff		Vienna	[illegible]
٤	متن بوستان				A. Rodgers		London	١٨٩١
٤	بوستان				K. H. Graff		Jena	١٨٥٠
٥	״				Schlechta Wssehrd		Munich	١٨٥٢
٦	״				Rueckert		Leipzig	١٨٨٢
٧	״				Barbier de Meynard			١٨٨٠
٨	״				H. Wilberforce Clark		London	١٨٧٩
٩	״				G. S. Davie		״	١٨٦٢
١٠	منتخبات بوستان				Robinson			١٨٨٨ و ١٨٨٣
١١	متن جلستان				Gladwin		Calcutta	١٨٠٦
١٢	״ ״				E.B. Eastwick		Hertford	١٨٥٠

	اسم المؤلف	شرحه	ترجمه	طبعه	الذي شرح او ترجم او طبع	لغة الترجمة	المدينة التي طبع فيها الكتاب	تاريخ ذلك
١٣	متن جلستان	—			Johnson جونسن		Hertford	١٨٦٤
١٤	" "			—	J. T. Platts		London	١٨٧٤
١٥	جلستان		—		A. Du Ryer			١٦٣٤
١٦	"		—		Dalegre			١٧٠٤
١٧	"		—		Gaudin			١٧٨٩
١٨	"		—		Semelet		Paris	١٨٥٨
١٩	"		—		Gentius			[illegible] ١٦٥١ و ١٦٥٥
٢٠	"		—		Adam. Olearius		Schlesswing	١٦٥٤
٢١	"		—		B. Dorn		Humburgh	١٨٢٢
٢٢	"		—		Wolff		Stutgart	١٨٢٤
٢٣	"		—		K. H. Graff		Liepzig	١٨٢٦
٢٤	"		—		Gladwin		كلكتة و لندن	١٨٠٦ و ١٨٢٢

	اسم المؤلف	شرحه	ترجمه	طبعه	اسم من شرحه أو ترجمه أو طبعه	لغة الترجمة	المدينة التي طبع فيها الكتاب	تاريخ ذلك
٣٥)	جلستانه		—	—	Dumoulin ديموولين	الانجليزية		١٨٠٦
٣٦)	،،		—	—	James Ross جيمس روس	،،	London لندن	١٨٢٣ ، ١٨٩٠
٣٧)	،،		—	—	E.B. Eastwick إ.ب. إستويك	،،	Hertford ، London	١٨٥٤ ، ١٨٨٠
٣٨)	،،		—	—	J.T. Platts ج.ت. بلاتس	،،	London لندن	١٨٧٤
٣٩)	،،		—	—	S. Nazarianq	الروسية	Mosco موسكو	١٨٥٧
٤٠)	،،		—	—	Gtwinawski	Polish	وارسا	١٨٧٩
٤١)	،،		—	—		التركية	Constantinople القسطنطينية	١٢٨٦ ، ١٢٩٤
٤٢)	٧٠ قصيدة من الطيبات		—	—	K.H. Graff ك.هـ. جراف	الألمانية		
٤٣)	١١ ،، من البدائع		—	—	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،،		
٤٤)	٧ ،، من الخواتيم		—	—	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،،		
٤٥)	١٩ قصيدة فارسية		—	—	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،،		
٤٦)	بعض المراثي		—	—	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،،		
٤٧)	بعض الرباعيات		—	—	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،،		
٤٨)	المفردات			—	Latewehe		Strassburg ستراسبورج	١٨٧٩
٤٩)	الصاحبية		—	—	Bacher باخر			

١) مع شرح ... ٢) وشرحها ٣) وشرحه ٤) وشرحها ٥) وشرحها

	اسم المؤلف	شرحه	ترجمة	طبعه	اسم من شرحه أو ترجمه أو طبعه	لغة الترجمة	المدينة التي طبع فيها الكتاب	تاريخ زمنه
٤٠	جلستان		—	—	الخواجا جبرائيل بن يوسف (1)	العربيه	مطبعة بولاق القاهره Cairo	١٢٦٣ﻫ
٤١	،،		—	—	يرشير على أفوس	الهندستانيه	كلكتا	١٨٥٢ م

(1) الشهير بالمخلع

راجع فهرس المخطوطات الفارسيه «بديوان الهند» تأليف الدكتور
Dr. Eth. إيث

ب

آثار السعدي

٠ ٠ ٠

آثار السعدي

يحصر نثر السعدي ومنظومه فيما يأتي :-

١ ـ [illegible] منثور في النثر

٢ ـ البستان ـ أو رسالة الإرشاد المعروفة بكريما

٣ ـ القصائد الفارسية وتشتمل على الملمعات والمثلثات والترجيعات

٤ ـ القصائد العربية

٥ ـ الديوان الأول في الغزل ويسمى الطيبات

٦ ـ الديوان الثاني ويسمى البدائع

٧ ـ الديوان الثالث ويسمى الخواتيم

٨ ـ الغزل القديم

٩ ـ الصاحبية

١٠ ـ المقطعات والهزليات

١١ ـ [illegible]

١٢ ـ [illegible]

وأول من عني بجمع هذه المؤلفات في مجلدين عظيمين هو بالإجماع علي بن أحمد أبي بكر البيز وتوفي بعد نحو نصف قرن من وفاة السعدي حيث رتبها على حروف الهجاء بالنسبة للقوافي

وكانت هذه الطريقة متبعة من قديم حتى أن من تناولوا في سنة ١٧٩١ تلك المؤلفات بالنشر بكلكتا ومنهم المستر هارنجتون ومولوي محمد رشيد اضطروا إلى اتباع هذا النمط ، وهي طريقة وإن سهلت الاهتداء إلى القصائد بتتبع قوافيها إلا أنها عقيمة بالنسبة لبيان الأوقات التي وضعت فيها ما دامت هذه الأوقات غير معينة حتى تكون هاديا للظروف التي أحاطت بالشاعر فأوحت إلى خياله ما كان يفيض به قلمه وخاطره .

وهناك عيب آخر من حيث عدم الدقة في النقل لتنقل تلك المؤلفات بين أيدي النساخ الذين لا يفهمون من الأمور غير الحفظ فلا يدركون معنى ما ينسخون حتى يردوه إلى أصله أو يتتبعون فيهتدوا إلى الأصل الصحيح

وهذه المخطوطات سواء المتداولة بين أيدى الناس أو المخطوط منها في دور الكتب منها ما هو أعجمي تركى ومنها ما هو أعجمي هندى وهو الذى كان أساس طبعة كلكتا أم الطبعات الأهلية التي ظهرت بعد ذلك .

ولقد وضع الجامع السالف الذكر وهو على بن أحمد أبي بكر مقدمة لما جمعه عقبها بالرسائل المنثورة التي كان يسميها السعدى بالسفينة لأنه البدن أنه على أنه وعلى الأخص المتصوف يجب أن تكون له سفينة يعبر بها بحر الحياة ليصل إلى بر السلامة .

وهذه الرسائل تخوض في التصوف والبحث عن التشكك في الحياة وفي ذكر الله ورسوله مع شيء من القرآن والحديث ومع قصة أبي يزيد البسطامي المذكورة في ملحمة لفريد الدين العطار .

أما البندنامة «كريما» ، وهي رسالة الإرشاد فإن بعض الأدباء لم يرفضوا نسبتها إلى السعدى لأنها لا توجد في النسخ القديمة من الكليات .

ولكننا مع ذلك لا نرى من بأس في انتسابها إليه ،

عدم العثور عليه في النسخ القديمة من الكليات لا يقوم دليلا على أنها ليست للسعدي إذ من الجائز أن يكون أحد قد عثر عليها بعد أن رتب هذه الكليات على بن أحمد وضمها إليها ولا سيما إذا لاحظنا أنها لا تختلف في الأسلوب الجميل الذي امتاز به السعدي .

نعم إننا لا نستطيع أن نقيم دليلا مقنعا على اتصال هذا الأثر بالسعدي ولكن الأدلة التي يسوقونها غير مقنعة على ما ذكرناه وهذا فضلا عن أنه لم يذكر أحد اسم الأعراض نسب إليه هذا الأثر . وعلى كل حال فإن هذه الرسالة قائمة على الوعظ والإرشاد حتى أطلق عليها هذا الاسم .

أما قصائده الفارسية فأغلبها أخلاقي لأنها لا تخلو من المدح والرثاء .

وليس في وسعنا أن نقرب هذا الشعر من أدوار حياته . ولكننا نراه في قصائده ابتداء من رقم ٢٠ إلى رقم

٣٨ ينوح على ما أضاع من شبابه مما يرجح أنه نظمها في آخر سياحاته أو على أثر عودته لشيراز وهي تلك العودة التي اشتهر عندها بقصيدته الحادية عشر التي تغنى فيها بمحاسن وطنه وفراره من الحوادث العصيبة التي أصابته .

أما مدحه فقد كان لبعض الخواص نذكر منهم أباكاخان وأخوى جوايني والحاكم سلجوقشاه والحاكم انكيانو وشمس الدين حسين ومجد الدين .

ولقد كانت عبارات مراثيه فخمة مؤثرة سواء في أمراء شيراز أو في الدولة العباسية كما سنتكلم عنها فيما يأتي .

أما الملمعات فهي مزيج من الشعر الفارسي والعربي عمد فيه السعدي الى وضع الصدر من البيت بإحدى هاتين اللغتين ووضع العجز باللغة الأخرى ثم عكس هذا الترتيب في البيت الذي يليه وهكذا

مع توافق القوافي . وتسمى ملمعات

ولقد كان أحيانا يزيد على ذلك لغة ثالثة وهي التركية فيكون هناك ثلاث قواف مختلفة اللغات مع توافقها . ولذلك سميت بالمثلثات .

أما الترجيعات فهي أشعار متحدة القافية مما يدل على ضيقها وعلى مقدرته أيضا وما كانت هذه الصعوبة لتحول بينه وبين إبداعها معجزات خواطره .

ويأتي بعد ذلك شعره العربي وقد جئنا بأمثلة منه تدل على مقدرته فيه وأجوده الغزل الذي كان يمرح فيه خياله وتسيل على جانبيه رقته فعده معاصروه من خير شعره حتى قال جامي مؤرخه أنه فريد عصره في الغزل وعده دولتشاه أحد أنبياء الشعر .

وأشهر قصائده الغزلية المسماة بالطيبات وهي تتناول نحو ٥٠ وزنا شعريا مختلفا

وهناك له شعر عربي آخر في اللغة سماه البدائع

وهي مسمية في محلها لما لهذا الشعر من المكانة .

أما خواتيم فقد أفرغ فيها كل أساليب الفن مما يدل على أنه وضعها في العهد الذي كتب الشعر فيه الكمال وهو يذكر فيها عشقه لله . وقد أهدى هذه الخواتيم إلى أمير شيراز أبي بكر ملقبا إياه بأبي النصر كما فعل في الطيبات .

وأما الغزل القديم فربما لم يكن له من الأهمية إلا من حيث أنه يوقفنا على الأسلوب الذي كان متبعا عند الكتاب الأقدمين في هذا النوع .

وليست الصاحبية أو الصاحبنامة إلا عبارة عن تقويم يومي بالشعر لا تقوم على وحدة ثابتة فهي أشبه بالأمثال المنظومة .

وربما كانت الصاحبنامة خير مرآة للعقول الفهم السعدي لأنها تحتوي على آرائه عن الحياة وتجاربه فيها وهو ينظر أخيرا إلى العالم نظرة حنو وانعطاف . فيوصي

بالعدل نحو الرعايا وبالحذر من العدو وبالطيبة نحو القريب وبالصبر على الحوادث بعبارات سهلة موجزة ولكن خالية من الصور ولهذا كانت لا ترتفع إلى مستوى البستان والجلستان من هذه الوجهة وإن كان لا يصح والإرشاد فيها مكتسبين نكدوبا.

الجلستان :

[دال من أصليين فارسيين (جل) أى ورد
و (ستان) أى مكان]

وقد ترجم هذا الأثر إلى اللغة العربية فتداولته الأيدى فى بلاد العرب والشام والروم ومصر كما ترجم إلى اللغة التركية أخو السلطان عبد الحميد خان وهو رشاد باشا.

أما ترجمته إلى اللغات الأوربية فلا عداد لها فقد نقل إلى اللغة اللاتينية بمطبعة امستردام وإلى اللغة الفرنسية بمعرفة قنصل نصرالسياسى، دانز دين

طبع بباريس فى ١٦٤٤ كما نقل إلى اللغة الألمانية الأستاذ أولى إيرس وإلى الانكليزية بمعرفة غليدومن بناء على طلب الجمعية الأسيوية .

على أنه ترجم إلى كل لغة من هذه اللغات عدة مرات مما يدل على عناية اولئك الأقوام به واهتمامهم بشأنه .

ولم تكن الهند أقل منهم اهتماما فقد ترجم شبر على افنوس باللغة الأردية فى عهد ماركوس ولزلى حاكم الهند العام . ولكنه ترجم بعد ذلك عدة تراجم أوسع بيانا وسهولة .

وللجلستان تراجم أخرى باللغة البنغالية و الغجراتية . وقد بلغ من تقدير الهندلة للبستان أن عمم تدريسهما فى كل المكاتب كتدريس كليلة ودمنة هنا بمصر على ما أشرنا إليه فى المقدمة .

نعم إن الجلستان جدير بهذه العناية وهو كتاب

فريد لحسن تبويبه ورشاقة أسلوبه وجزالة لفظه وسهولة
عباراته وبديع استعاراته وخلوه من كل غموض وإبهام
مما يدل على أن السعدي صرف فيه شطرا كبيرا من عمره
كما أشار هو نفسه إلى ذلك في صدره.

وكثيرا ما يذكر السعدي في خلال هذا السفر شيئا
مما صادفه في حياته من الحوادث أو مما يكون شاهده
منها أو سمعه من ألسنة الناس أو عثر عليه
أثناء مطالعاته حيث جمع كل ذلك في أبواب ثمانية خصص
لكل باب منها قصصا وحكايات تناسبه وهو لا يقتصر
على سردها سردا بل إنه يذكرها ويذكر معها نتيجة من
تناولها ولا يخرج ذلك عن أمور الأخلاق بحيث لا
يفرغ القارئ من إحداها حتى تكون نفسه قد ثملت من
كأس أسلوبه وتطهرت بوعظه

ولقد ألف من سبقه كالقاضي حميد أبي بكر كتاب
مقامات حميدي بتقييد بالسجع على مثال مقامات الحريري

وبديع الزمان وكقابوس بن اسكندر أحد كتاب القرن الخامس الملقب بعنصر المعالي في كتابه قابوس نامة الذي نسج على هذا المنوال الضيق أيضا فما كان كلاهما حرا في إرسال عباراتهما على ما كان يجلو معانيها وهما أسيرة تلك القيود حتى جاء السعدي فوضع جلستانه في هذا الثوب الجديد البعيد عن تكلف السجع فخرج به من تلك الدائرة الضيقة إلى فضاء المعاني يتخطر فيه قلمه كما يتخطر الغصن الرطيب في الروضة النضرة فهو من هذه الوجهة يعد مجددا . وقد حطم تلك القيود ولم يعبأ بها وعمد إلى الكتابة المرسلة التي تعتمد في بسط المعاني على أسلوبها السهل الجزل الممتنع حتى كان من نصيبه ذلك الإقبال الكثيرة في كافة الأصقاع على ما ذكرناه .

البستان

أما البوستان وهو كالجلستان من أصليه فارسيه (بو) ومعناه العطر و(ستان) ومعناه مكانه

فهو من أكبر مؤلفات السعدي ويمكن أن يقال الجلستان صورة قريبة منه مجردة من التصوف.

والبستان يبتدئ بحمد الله والثناء على رسوله والخلفاء الأربعة كما فعل جلال الدين الرومي والعطار إلا أنه خال مما لهما من الذهول والمذهب الحلولي. ثم بعد الفراغ من مدح الأمير الحاكم قبل الانتهاء من المقدمة يفيض السعدي في غرضه من هذا الكتاب:

«لقد أقمت هذا الأثر تخليدا للحكمة وجعلته في عشر فصول». ويتناول موضوعات هذا الكتاب القيم العدل والحذر وسياسة الحكم ومخافة الله وفعل الخير والتسامح والشكر والعشق والتواضع والصبر والقناعة والتربية وشكر الإنسان لله على فضله والندم وسلوك سبيل الهداية والسلامة وبعض أدعية ثم خاتمة شعرية.

ولا يختلف البستان عن الجلستان أيضا إلا من حيث صعوبته لأنه في الشعر حتى كثرت تراجم الجلستان

لسهولته

ولقد خلقت هذه الصعوبة تيارين من الشراح أحدهما من جهة الهند ، وهذا الشرح هو الذي أخذ به جراف واعتمد به في طبعة فيينا ١٨٥٨م .
والآخر من جهة الترك ودرس شامعي سروري وسوري الذي طبع في النصف الأخير من القرن السادس عشر ، ونعنينا بشروح من سبقوه .

أما سروري فله شرح فارسي كما أنه شرح الجلستان باللغة العربية . وهذا الشرح الأخير يحتوي فوق ما تضمنه من التفسير وذكر الأعلام هامشه .

وإذا كان البستان نظرا للصعوبة السالفة لم يعرف مثل الجلستان في اوربا فإنه يعد كما ذكرنا

من أمهات كتب السعدي بشهادة المستشرق القدير ج . مولتص الذي يقول :

" لا أدري لم أهمل هذا الكتاب في أوربا وقد حوى من القصص ما عقبه السعدي بالأمثلة الأخلاقية مما يجعله جديرا بالشهرة التي نالها الجلستان "

(٩١)

٦

السعدي والمجتمع

السعدي والمجتمع

لقد رأينا كيف أن حياة السعدي من عهد طفولته إلى شيخوخته كانت تجري دائماً خلف ارتشاف كؤوس التربية والعلم سواء من يد أبيه في صغره أو أساتذته في بغداد ومن يد الحوادث في رحلاته العديدة ومخالطته لجميع الناس.

ومثل هذه الحياة التي كتب لها النضوج فالكمال فملكة تقدير الأمور والحكم عليها. حياة أصبحت منبعاً فياضاً لمن يستريح إليه إذا سالت من جنباته جداول الإرشاد والنصح والتعليم وفجراً وضاء ينشر حوله أنوار الهداية فيضيء الطريق عند أقدام الجاهلين والخاطئين.

لذلك نرى في السعدي موسوعة فياضة من موضوعات الأدب والأخلاق والعلم وأستاذاً ماهراً عاماً للفرد وللمجتمع وطبيباً بارعاً شاءت الأقدار أن ترسله إلى

[illegible]

[illegible]

الناس ليكشف عن نقائصهم ، ويبحث عن الأسباب
الشافية لنفوسهم ويعلمهم معنى الحياة والسبيل
إلى السعادة الصحيحة .

كان العلم وأدب السلوك عند السعدى رأس
مال غير قصيد يعز عليه أن لا يثمر ثمره وشجره باسقة
نامية . تأخذه الحسرة عليها إذا لم تؤت أكلها حتى أنه
لم يكن شاعراً رقيقاً فحسب بل كان مدرسة عامرة بالعلم
والحكمة تخوض في البدن أنه في كل أدوار حياته ثم في تلك
الحياة مرتبطة بمن عداها وهكذا يدخل في الحكم على الجماعات
من طريق الحكم على الأفراد كأنه كان يرى في نفسه مرآة
عامة تنعكس فيها كل تلك القوى .

والسعدى في كل هذه الأدوار وقبل البحث بعيد
النظر سليم الذوق يحسب حسابا للأمزجة المتفاوتة
والطبائع المختلفة والغرائز المتنافرة كما ستراه .

الطفل

ويدل على أنه قبل أن يتناول الطفل يتجه إلى أبيه الذي هو أول معلم له في نشوءه فيقول له إن ابنك بضعة منك وصورة لك وعجينة تأخذ شكل القالب الذي تدس وتغط فيه فليكن هذا القالب رشيقا قويا ولتكن رشاقته راجعة إلى العلم وقوته راجعة إلى الطهارة وهكذا تترك من بعدك ماضيا نقيا أو لتحجز من بزارك ذرءا صالحا وإلا فكأنك لم تترك عقبا (١)

وبعد أن نبه الوالدين إلى هذا الواجب الأولي العام ينتبه إلى ما غرست الطبيعة فيهم كافة من غريزة الحنو وأن هذه الغريزة قد تكون حائلا بينهم وبين القيام بذلك الواجب فيطلب من كل أب ألا تأخذه الشفقة على ولده إلى حد ضار بتلك التربية فيوصي بالشدة مع الصغار ولكن مع العدل والحزم لأن الأطفال في الحقيقة لا يميزون بين ما يضرهم

---

(١) هبستان ٩٩

وما ينفعهم لأنه لم يكن لديهم من آبائهم لجام يكفل لهم سلوك الطريق المأمون .

وكذلك يتنبه إلى ما يكون لديهم من حسن الحظ في الحياة من أمور الجاه والثروة فيخشى أنه يتسرب إلى أذهانهم أن الغرض من العلم هو الحصول على المال وما دام هذا قائما فلن يرتقوا [illegible] الصفا النقي في سبيل غاية وفرضها لديهم إقبال الحياة عليهم ولذلك الغرض عليهم فرضها أن لا يتوانى في تلقينهم من دروسهم ساعة مما لديهم من الثروة [illegible] وخيرات الحياة [illegible] [illegible] أنه [illegible] الأبناء فيصبحوا أشقياء .

وهكذا [illegible] الصدق مع [illegible] حياة [illegible] الذي [illegible] [illegible] بهذا [illegible] [illegible] ليتما [illegible] [illegible] الحياة [illegible]

بحيث لا يجد متسعا من الزمن ليتفرغ إلى تأديبه فيضطر إلى إسناد هذه المهمة إلى غيره ولذلك يوصي باختيار ذلك المؤدب لأنه في منزلة الأب سواء بسواء ولأن الأطفال يستمدون غذاء أخلاقهم من أخلاق معلميهم أما المعلم الذي لا يخلو من فظ القريحة في الحد الجميل وكذلك الأب الذي يفرط في هذه الرابطة فإن ولده صبي لا تربية له ليسبق إلى القبر وهو تعبير جزل دقيق معناه أن الأب في مثل هذه الحالة يقضي على ولده بيده في حياته.

وكان السعدي ينبه المعلمين دائما إلى أن لا يتركوا قبل كل شيء في العناية بالطفل من صغره وهو لب العود الأخضر العود اللين [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible] إلا بالنار [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المرء الذي يتعهد هذا الطفل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عن الجوهر. وهذا الأمر

جلستان ٢٧٥

«إن الغصون إذا قومتها اعتدلت

ولن يلين إذا قومته الخشب»

لأن النار تصلح من الاعوجاج وهى ظاهرة طبيعية فاتت الشاعر العربى ولأن السعدى يرمى بخياله إلى إمكانية الإصلاح دائما حتى ولو بالنار بخلاف الشاعر العربى الذى يقف به اليأس عند الكسر. وعلى كل حال فوجه الشبه قائم بين الشاعرين من حيث أنه فى الإمكان تلافى هذا الاعوجاج من الصغر قبل أن تفوت فرصة هذا اللين.

ويوصى السعدى أخيرا بالطاعة المطلقة من الابن الذى لو يذوقه خشونة الأمرين يدفع بنفسه فيما بعد خشونة الحياة. ولا شك أنه لا يطلب هذه الطاعة من الطفل إلا متى شب وأدرك وميز حتى يجعل منه فتى مؤدبا مهذبا النفس يعتبر بعيوب الناس فيصلح من العيوب التى فيه (١)، بل أنه يستنبط من هذه النصيحة

---

(١) جلستان ١٢٤

فكلمة من أسمى الكلم الداعية إلى الرحمة ما دام أن الذي يرى عيب نفسه يعذر الناس على عيوبهم.

ومن غير شك أن الإنسان الظاهرة عيوبه يكون عرضة لنقد الناس وهو نقد يراه الهدى نعم يجب أن نتحمله بالرضى إذا أردنا أن نصلح من أنفسنا

أما الطفل الذي عرفت طبيعته فوقفت جامدة جدا يحول بينه وبين مناهل التربية والعلم فإن الهدى لا سبيل له فيه. لأن التأديب مع مثل هذا في نظره عقيم.(١)

«المرء مع جاره وصاحبه وغيرهما»

لا يكاد يفرغ المرء من النظر إلى نفسه حتى تتحول عيناه إلى ما حوله. وعند ذلك يجد نفسه إما إلى جانب جاره أو أمام صديقه أو مع غيرهم لأن الإنسان مدني بطبعه لا يمكنه أن يعيش بعيدا عن الناس.

ولا تخرج آراء السعدي في هذا الصدد عما هو

---

(١) جلستان ٢٢٩

مشهور من الأمثلة العربية المتداولة «خذ الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق»

والسعدي يدرك حرص الجار على جاره مما يدفعه أحيانا إلى نصحه إذا أنس فيه عيبا شفقة عليه ورحمة به، فإذا كان الأمر كذلك فلم نتألم من جارنا إذا وجه نقدا إلينا سيما وأن أساس الصحبة أن لا يغشني جاري فيكتم ما يراه من نقائص. والسعدي يصوغ هذا المعنى في أسلوب على غاية من الرشاقة ودقة التصوير، وصريحته الحل الوحي من ينبهني إلى الأشواك التي تعترض قدمي في طريقي[1]

ونحن نرى أيضا أن للجار حقوقا علينا بما يليق من حبوبنا لأن من مصلحته أن يكون جاره صالحا كما أن من مصلحتنا أن يكون هو أيضا كذلك.

وكان السعدي مع ذلك يحذرنا من الاعتماد المطلق

R.B.Khairat.

(١) بستان ٦٩

على الصديق ويحذرنا من الثقة به الثقة المطلقة العمياء وقد يكون أساس هذا التحذير عنده تجنب الضرر أينما كانت حتى أنه ليرى ملازم العدو وإن تر خيرًا منه به الصديق الذى يدفعه حبه إلى السكوت فى مواقف النصح

نعم قد يؤخذ على السعدى هذا القول لأن عدوى لم ينكر مطلقًا فى تقويمى بتنبيهى إلى ما يكون فى نفسى من المعائب والمساوئ ولكن العدو مع هذا قد يندفع إلى ذلك لا من طريق الاخلاص والنصح الرحيم الرشيد وإنما لأن ثورة الغضب وشهوة الحقد متملكانه فينبرى إلى ما فينا من طريق التعيير . ولقد كان الامام على كرم الله وجهه يقول « رحم الله من اهدى إلى عيوبى » وليس الهداية مصدرها مطلوب قد تكون من الصديق كما تكون من العدو ولعله لم يذكر الدافع لها أما استنزال الرحمة على ذلك المهدى وإن كان عدوًا فلاغضاضة

فمن لأن العدو النافع أولى بالرحمة من الصديق الضار وعدو عاقل خير من صديق جاهل والحكمة ضالة المؤمن التقطها أينما وجدها .

وعلى كل حال فلا يوجه مثل ذلك الاعتراض على السعدي إلا من يأخذ قوله على ظاهره بغير تدبر وتحليل ومع ذلك فمن يضمن أن العدو والصديق كلاهما لا يتحولان وهكذا يجب على المرء أن يكون حذرا من كليهما وأن لا يفلت فرصة الاستفادة من أيهما

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ * ـق فكان أعلم بالمضرة

والسعدي يرى أن للنصح سياسة خاصة كما لغيره من بعض شؤون الحياة فهو يوصي بأن يكون النصح في لين لأنه قد يكون من وراء الخشونة أن تجمح طبيعة المنتصح فتنفر من قبوله ولأنه قد يكون خجولا من إظهار جهله فتفوته الاستفادة بمثل تلك الشدة . ويجب أن يكون

من يتصدى للإرشاد على علم غزير حتى يخرج تلميذه كاملا أما إذا كان جاهلا فلا يكون تلميذه فيما بعد إلا صورة منه لا يرجى عنده وقتئذ نفع . وعلى المتعلم متى استوفى نصيبا من التعليم وإذا ألا يبخل بعلمه على غيره وإلا كان فى مستوى المعلم الجاهل لأن العلم الناقص كالجهل التام ، والناس مع جهلائه لا ثمرة من جهودها - غنى لا ينتفع بماله ومدع يضلل الناس أو عالم لا ينتفع الناس بعلمه .

وكل ما ذكر خاص بحياة الشبان المعنوية من حيث التربية الخلقية والعلمية ولكن هنالك حاجة أمس لأنها تتعلق بحواسهم وما يعترضها من سبل الشهوات حتى قال السعدى « كما أن العلم أساس لسلامة الفكر فكذلك عصيان الهوى وحكم النفس

أساس سلامة الجسم:

ولقد جر هذا شاعرنا إلى المفاضلة بين مملكة العقل ومملكة الغريزة وأيهما أولى بالتفضيل والإتباع ولكنه لم يتردد فى وجوب تحكيم العقل دائما لأن الغريزة عامة عند الإنسان والحيوان أما العقل فهو وحده يميز بينهما (١)

ولقد كان السعدى شابا يعرف ما السلطان الشاب القوى الجبار من التسلط على النفوس وما يلزم لاتقاء غوائله من محاربته حتى تتجرد نفس كل فتى من الأقذار وتحصل على طهارة حريتها ولذلك أوصى كثيرا بمجالدة النفس لأنها أعدى أعداء الإنسان والمطية العاصية كلما أرخيت زمامها زادت جموحها وفى مثل ذلك يقول الشاعر العربى أيضا:

---

(١) كلكتا ٤ ٢٢

وخالف هواها ما استطعت فإنما

هواها عدو والخلاف صديق

وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى.

لهذا حذرنا السعدي كثيراً من المرأة كما جاء في الباب الخامس من الجلستان ودعانا إلى عدم الاندفاع إلى الزواج قبل أن نبلغ سن التجربة (١)

- السعادة في نظر السعدي -

إلى هنا تناول السعدي الكلام على الإنسان عند نشأته وبعد أن يشب ويميز بالنسبة لنفسه وبالنسبة لعلاقته بغيره وهذا الجزء الأخير هو أساس دخوله في زمرة المجتمع ولكنه أساس لا يتحقق إلا بركن هام هو الحرية الشخصية التي هي أكبر مظهر من مظاهر طهارة الاجتماع.

---

(١) جلستان ٢١

يرى أن المرء لكي يكون سعيدا يجب أن يكون حرا مستقلا لا عن الناس ولكن في دائرة نفسه لأن هذا الاستقلال في نظره نافذة تطل منها النفس على آفاق الآمال تراها دانية قريبة التحقيق فتمتلئ تفاؤلا (Optimisme) ولا شك أن التفاؤل هو أساس السعادة لأنه ناشئ عن الأمل الذي هو نصف النجاح ومتى توافر هذا الركن في نفس كل إنسان تهيأت أسباب السعادة للمجموع كله.

ولم يفت السعدي الكلام أيضا على الجانب الشخصي من ذلك الاستقلال وهو الجانب الذي يربأ بالنفس عن الانحطاط بدنايا ويبعدها عن مواطن الخسة ويفتح أمامها مستغلق الطرق التي تصل بها إلى هيكل العزة فينصح بألا نتناول شيئا من يد المسيء ولو كان سكرا لأن نزع تلك الإساءة لا يكون إلا أمرّ من الحنظل (١) وألا نمد يدنا

---

(١) صلحنامة ١٦٥

إلى ونشبع ولو متنا لأنه خير للمرء أن يموت عزيزا من أن يعيش ذليلا .

ولا يتيسر ذلك إلا إذا احتقر الإنسان ما في أيدي الناس قانعا بما في يده معتقدا أنه يكفيه ما يبلغ به من الغذاء ليعيش ويعبد الله(١)

نعم إن مما جاء في الأمثال العربية ما هو «رب أكلة منعت أكلات» ، وأيضا قول الشاعر:

كم دخلت أكلة حشا شره * فأخرجت روحه من الجسد

وإن الحديث الشريف يقول «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» . والسعدي لم يتعرض لذلك في ما ذكره ولكنه مفهوم منه ضمنا لأن أقل ما يترتب على القناعة هو الحكم على شهوة البطن والبعد بها عن النهم وعواقبه .

---

(١) جلستان ١٦٢

ولكن مما نلاحظه أن السعدي كان رجلا عمليا فهو حين يقول أنه يكفي الإنسان ما يبلغه من الغذاء ليعيش ويعبد الله يحث دا الحديث الشريف: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداء.

ومع ذلك فإنه لا يريد أن تصل القناعة بالإنسان الى التقتير على نفسه وعلى ما له.

ومن أقوال السعدي: «لقد ولى الأمس والغد لم يزل بعيدا عنك فلا تفكر إلا في ساعتك»، وهو قول يشبه من وجوه بهذا الشعر العربي:

ما مضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التي أنت فيها

ولكننا رأيناه فيما سلف يصل الى التفاؤل الذي هو أساس السعادة من طريق الأمل والأمل يدعو الى التفكير في الغد وما بعده وربما ذهب الناس إلى أنه يناقض نفسه في هذا الصدد ولكن الحقيقة أن الغد مجهول ولا يدري الإنسان ما هو مخبوء له عنده في صدر الغيب فالسعدي

يريد أن يشغل الإنسان نفسه بمخاوف المستقبل وأن يكتفي بالساعة التي هو فيها حتى لا يجره ذلك إلى مذهب السخط والتشاؤم (Pessimisme)

ومع ذلك فإن السعدي أنس إلى هذا المذهب (التشاؤم) بالرغم منه وهو يرى أن الإنسان في الحقيقة مخلوقا ضعيفا حقيرا أمام عالم فسيح تسبح مظاهره الخلابة في بحر من الآلام حتى ذكر أن شيخا كان يتعبد تحت شجرة مباركة يحج الناس إليها وهو يطلب من الله أن يرزقه ولدا فلما وهبه إياه سخط هذا الولد على الدنيا وتمنى لو أنه يعرف مكان تلك الشجرة فيسأل الله أن يقضي على أبيه. فالسعدي في هذا الموقف يتساوى مع أبي العلاء المعري إلى هذا المذهب الذي أطلق لسانه بهذا البيت المأثور

هذا جناه أبي علـــــــــــــي وما جنيت على أحد

وهكذا يعود فينظر إلى العالم من خلال منظار قاتم

اللوم ويرى أهل أشرارا لا تنطوى جوانحهم إلا على الكذب والحقد فينصح بعدم الاعتماد عليهم والاسترشاد بهم وهو يرى أن الجاهل قد يتغلب على الرجل الحكيم بما انغرس فى لسانه من قوة الشقشقة كرائحة الثوم العنيفة التى لا تترك إلى جانبها أثرا لعبق الند (١)

ومع ذلك فإنه لا يستقر عند هذا الخاطر حتى يعود فيوحشه مرأى الناس عامة ويفزعهم ذلك الشقاء فيبكى لهم ويحنو عليهم ثم ينتهى به المطاف إلى هذه الخاتمة الأليمة وهى أن يقنع كل إنسان بالحظ الذى كتب له.

- « المال » -

ولو أن السعدى يدعو إلى القناعة والزهد على قدر المستطاع إلا أنه لا يرى رأى المتصوفين فى المال

---

(١) جلستان ٦ ، ٣

كفريد الدين العطار الذي لا يفترعن مدح الفقر لأن
السعدي ميال إلى الاعتدال ولكن رأيه على كل حال
بالنسبة للفقير والغني يختلف باختلاف أحوال المجتمع
فيقول مثلا للمحتاج تحمل الفقر ولكن الفضة مع ذلك
وإذا اشتد بك فلا بأس من أن تمد يدك إلى الناس
لأن ذلك خير لك من السرقة (١) ويقول للغني ليس
الغرض أن تسعى وراء كثرة الأموال لأنها إنما
أعدت لتكون وسيلة للوصول على مرافق الحياة (٢)
ثم إن المال في نظره يكسب صاحبه قوة حتى
أن الغني ليضحك على الشيطان ويكون مقربا من
السيدات الحسان (٢) ولكنه يمقت الرجل الذي يقطع
عمره عبدا للمال لكي يبعثره ولده من بعده . لأن الذهب
إنما أعد ليسد فراغ مطالب الحياة لا ليدفن في بطن

---

(١) جلستان ١٨٥ (٢) جلستان ٢١٠ (٢) صاحبنامة ٩٩

الأرض حتى يكون كبعض الأحجار (١)

وتظهر رأى السعدى فى المال بوضوح من حيث أثره فى المجتمع من المقارنة بينه وبين المتصوفين فإن هؤلاء ينفثون دائماً سموم أحقادهم على الأغنياء أما هو فيخرج فى ذلك عليهم قائلاً: إن الغنى الرشيد المستنير من أكبر المحسنين إلى الهيئة الاجتماعية (٢) وبعبارة أوضح أيضاً: إن المال تتجلى قيمته بما تستخدمه فيه من تحقيق المنافع لا بأن نظل له عبيداً (٣)

« الصبر »

ومتى تكلم السعدى عن القناعة وعن رأيه فى الفقر والمال فقد كان أيضاً منتظراً أن يذكر شيئاً عن الصبر.

أليس الصبر فى الحقيقة إلا علاجاً تتطلبه النفس

---

(١) بستان ١٢٨ (٢) جلستان ٢٩٢ (٣) جلستان ١٢١

إذا ثارت به ثائرة الغضب ولذلك ينصح السعدي بالسكون والهدوء ويقول أن ثبات النفس ألزم في حالة الغضب منها في ساعات الحروب (١) وهو تشبيه لطيف مقصود لأن العراك الذي تكون النفس ميدانا له بين الغضب والحلم عراك عنيف لا يقل عما يقع في ميدان القتال حتى أنه يقول « دوس نفسك على الصبر لعلمه أنه شديد مرير (٢)

والسعدي يذكر بعد ذلك عاقبة الذي لا يحصل على هذه الفضيلة حيث يقول إنك بغير الصبر تدع الحكمة تفر من يديك (٣)

على أن الإنسان الضعيف يستمد من الصبر قوة في ساعات الابتلاء وفي هذا يقول السعدي: « أيها المظلوم احتمل ظلم القوي بالرضا ولا تطلب القوة

---

(١) بستان ٩٩ (٢) جلستان ١٥٥ (٣) بستان ١٠٧

أن تكون إلى جانبك ولكن لك من شجاعتك سلم يرفعك عند الشدة ولن تأمن قدماك مزالق الخطر إلا إذا دب فى أخلاقك عزم ماضٍ.(١)

ونرى من هذا أن السعدى لا يكتفى بالصبر وحده بل يطلب أن يكون معه أيضا شجاعة وعزيمة قوية ومع ذلك فإنه يتلاقى مع نيتشه الفيلسوف فى أن الإحسان واللطف من أسمى صفات الإنسان (٢) وأن النفس السامية تصل إلى من حولها من الأقوياء والضعفاء شعاعا من نور الانعطاف أما الذى خلا فؤاده من هذا النور فليس فى نظر السعدى بإنسان.(٣)

وفى هذا المقام يضع السعدى حكما للإنسان مع المساوين له وبالنسبة لمن هم دونه فينصح فى الحالة

---

(١) بستان ٤٢ (٢) جلستان بستان ٨٤ (٣) جلستان ١٤٨

الأولى بأن نتعلم كيف نتحمل انفعالات الناس نحونا قائلا : " إذا كان خلق يتنافى مع خلقك فاحذر أن تتأثر به فتنسى ما لخلقك من المحاسن (١) أما في الحالة الثانية فيوصى بالرحمة وحماية الضعفاء قائلا : لا تكن يوما ما سببا في جزع القلوب فإن زفرة واحدة من زفرات المظلومين قد تغير وجه الأرض " (٢)

ولكنه لا يذهب فيما ذكر مذهبا مطلقا لأن هذا العالم الناقص لا يخلو حتما من نفوس شريرة لا تستحق نعمة الحياة فإذا حنوت عليها جلبت الأذى على من هم جديرون بهذه النعمة ولذلك يقول : " لا شيء أجمل من العفو ولكن حذار أن تضع ضماده على جراح الذين يتسببون في عذاب الناس (٣)

ومع ذلك فإنه يشير بالتلطف مع الذي لم

---

(١) جلستان ٤٤ (٢) جلستان ٧٨ (٣) جلستان ١٥

يسيء إليه إلا مرة واحدة (١)

معاملة الفرد للناس

أفاض السعدي بما سلف فيما يجب توافره لتحقيق سعادة الفرد والمجتمع وما يرتبط بذلك من اختيار الجار والصديق والتجمل بحلية الصبر عند الشدائد وعدم استكثار نقد الناس وسيلة استعمال المال ولكنه الآن يذهب إلى أبعد من ذلك إلى معاملة الناس بعضهم بعضا وأول ما يشير به هو السكوت الطويل أو الإقلال من الكلام لأنه في ذلك مزيتين فالسكوت يستر عيب الجاهل من جهة ومن جهة أخرى فإنه قطع الوقت بالتفكير وأجيب قبل الاندفاع إلى النطق أو إلى العمل وهو في هذا الصدد يرى أن الكلمة إن خرجت من فيك فلن تملك عودتها إليه (٢) على حد قول الشاعر العربي: «إن البلاء موكل بالمنطق»

(١) جلستان ٧٥ (٢) صاحبنامة ٧

وإذا كان مجرد خروج الكلمة منا لغير مدعاة في بعض الأحيان إلى الندم فكم تكون حسرة الإنسان إذا خرجت هذه الكلمة إلى دائرة الفصل .

أما إذا كان الكلام في معرض محاورة فالأولى لك أن تتمتع كل الاستماع لمن يحدثك لأن حديثهم أساس يقوم عليه جوابك ويعطيك الفرصة لتغير أسلوب الطرق التي تصوغ فيها هذا الجواب (١)

ثم حذار في غضون حديثك أن تعلن شيئا من أسرارك الخاصة حتى ولو كنت تتكلم مع صديقك لأنك لا تأمن أن ينقلب عدوا لك فيما بعد (٢) . وما دام أساس ما سلف هو عدم الوقوع في الخطأ قولا أو عملا فإن الأخذ بالمشورة في هذا المقام واجب أيضا لأن من يقدم على عمل بغير استشارة يطيش سهمه (٣)

---

(١) جلستان ٩٠ (٢) جلستان ١١٢ (٣) صاحبنامة ١٠١

ومع ذلك فإن السعدى ينصح بتقدير مشورات الناس
بين الأخذ بها لأنها قد تكون ضارة ويظهر أنه يعود ثانيا
فينصح بعدم الإكثار من الاستشارة حيث يقول :-
من خيرك أن تحمل عبأ متاعبك وحدك من أن تجعل لغيرك
بسببها فضلا عليك (١) وهو فى هذا المقام يعود إلى
التنبيه بالمحافظة على عزة النفس . ومع ذلك فإن عدم
الاتكال حتى على المشورة الناس مما يخلق فى النفس ملكة
الاستقلال والاعتماد على التفكير الشخصى ولكن
السعدى أدرك فورا أن مثل هذا الاستقلال إذا تمكن
من الإنسان قد يدعوه إلى الغرور . فرأى أن ينصح
إجتنابه لأن اغترار الناس بأنفسهم يدفعهم أحيانا
إلى المجازفة العقيمة فيوقعنا فى الخطأ ولذلك يقول
: إن كل من يواجه الصخور جرئ حقيقة ولكنه

---

(١) جلستان ١٥٩

جاهل(١) وهو ينصح بذلك حتى ولو ابتسم الحظ لكل جرؤ لأن الحظ كثير التقلب.

ومن الأسباب الداعية الى الغرور مدح الناس لك والثناء عليك ولكن حذار أن يخدعك مثل هذا لأنه قد يصرفك عن تحليل مالك من الصفات ولذلك يجب عليك أن تنزل دائما الى أعماق نفسك لتتبين حقيقتك لأنه لا يعرف غير الانسان وحده قيمة نفسه(٢).

وربما كان من الواجب أيضا قبل الاندفاع الى عمل ما ألا تجري الانسان مع شهوة نفسه لأنها عمياء، وأن ينظر الى غايته من بعيد حتى لا تزل قدمه أما إذا وقع بين سبيلين مختلفين فليسلك أخفهما ضررا(٣).

والانسان في الحياة عرضة الى الاختلاط بكثير من الناس وقد يكون منهم سفهاء فمثل هؤلاء يجب الابتعاد

---

(١) [illegible] ١٩١ (٢) [illegible] (٣) [illegible]

عنهم لأنه لن يستفيد الإنسان عنهم شيئاً (١)
ومع ذلك فإن في مسايرتهم شبهة . قد يكون الإنسان
محلاً للاتهام بمثل هذه المسايرة (٢)

وقد لا يخلو الإنسان حين يشتبك مع الناس من
أن يكون له من بينهم عدو . والسعدي في هذا المقام ينصح
بالتخلص منه بقتله وإلا يكون عدو نفسه (٢) ولكنه قبل ذلك
يجب أن يحاسب نفسه حساباً طويلاً وأن يكون الانتقام في وقته
حتى ينتج أثره — على أن السعدي كثيراً ما يتجاوز عن الإساءة
ومقابلة الإساءة بالإحسان فلم أشار بالانتقام على الوجه
الذي سلف . إنه هو نفسه يعلل ذلك بما يستفاد منه البعد
عن الانتقام حيث يعلل بأنه يرجع في الغالب إلى دافع نفسي
حتى إنه يقول إذا لم يكن من المحسود إسداء الجميل لغير من
يستحقه ولكن مع ذلك يجب ألا تتردد في إسدائه كما لو تقدم إليك

---

(١) جلستان ص ٢٣٢ (٢) جلستان ص ٢٢٩ (٢) جلستان ص ٢١٥

السعدى والسياسة

(١١٩)

كلب يا رزنة أنيابه فادفع إليه بقطعة تلهيه بلا(١) ولا شك أن ذلك من حسن الرأي

وملخص كل هذا وجوب مقابلة الأذى بالأذى لأن الإحسان إلى السفهاء خطأ كالإحسان إلى الذئاب فإن هذا يجرئهم على الخراف (٢) على أن معاملة السفهاء بالحسنى كوضع البذرة في الأرض المجدبة (٣) ولذلك يرى السعدي أن يكون الإنسان مع الناس حيث يكونون كالوردة وكالشوكة مع الشوك .

-« السياسة »-

هذا البحث عام للأفراد يدور حول سلطان الملوك والحكومات نحو رعاياهم فهو يتناول الجماعات كلها من حيث ارتباطها بهم . لأن سياسة الأمم من أشق الأمور . والسعدي لم يكن مبتكرا حين كتب فيها فقد تناول هذا الباب

---

(١) صاحبنامة ١٥١ (٢) صاحبنامة ٢٢٩ (٣) صاحبنامة ٤٩

عالم صينى قديما اسمه يادوسيشو حوالى سنة ١٢٠١ فوضع
فى ذلك كتابه «كوداتكوت بيلك» على رواية المؤرخ ادوهسن
(Ohsson.) فى الجزء الثانى من كتابه عن المغول صفحة ١٠٧ ،
كما أن أدباء الفرس وكتابهم لم يفتهم أيضا أن يخوضوا فى
هذا الموضوع وضمن ابن المقفع فى كتابه خدانامه وظفرنامه ،
وكتابه عن سياسة الملك والسلاطين والوزراء الذى سماه
أدب السلطنة والوزارة وهكذا أخذ هذا النوع يجرى مع
الأقلام حتى بلغ حد الكمال لعهد الوزير الأكبر نظام الملك الطوسى
فى كتاب له أطلق عليه اسم «سياستنامه» واعقبه فى
أسلوبه المرحوم الغزالى بكتابه مرآة الملوك على رواية ابن
خلكان ثم فريد الدين العطار فى كتابه منطق الطير . أما
كتاب سراج الملوك فقد ظهر فى زمن السعدى حيث وضعه
ابن أبى زندكا والطرطوشى . وقد خاض العرب والتتار
أيضا فى الكتابة عن السياسة برسائل وضعوها فى
أصول الحكم .

د إذن فالسعدي لم يكن من المبتكرين في هذا الكلام وإذا كان قد سار على منوالهم فإن مؤلفاته تمتاز بالدقة وحسن الأسلوب.

ولقد كان السعدي ملكيا يقول أن جسم الرعية يجب أن يكون له رأس من الملوك والإ فسد نظامها.

ولا شك أن تولي الحكم عبأ ثقيل يلقي على كاهل الحاكمين ولذلك التمس السعدي أولا بالصفات التي تؤهلهم للقيام به.

ولهذا يقول السعدي: إن تربية الملوك من صغرهم يجب أن تكون على أسلوب أخص من الأسلوب المتبع في تربية الرعية لأن الملك يجب أن يكون مثلا لمن يحكمهم حتى طلب السعدي ألا يتعدى حدود الله إذا أراد ألا تتعدى الرعية حدوده ... وإن الملوك إذا أشربت نفوسهم الشرفقد البعيد أن تتجه إلى فعل الخرافة والسعدي يشبه الملك الشرير بالذئب حتى قال: كيف يولي

على الغنم ذئب »(١) ولذلك نبه السعدي الملوك دائما بألا يصلوا الليل في معاقرة بنت الحانه وفي أيديهم زمام حكم الناس »(٢) وأن يقتصدوا في شهوتي البطن والفرج أيضا قائلا : أيها الحكام إذا أردتم أن يصان مقامكم فلا تضعوا أنفسكم لحكم الهوى لأنه يؤثر فيه مهما خلصت نواياكم . (٣)

وبعد أن ذكر السعدي تلك الصفات الخاصة بنفوس الملوك تناول غيرها مما يرتبط مباشرة برعاياهم فجعل في رأسها العدل لأنه أساس الملك وقد رأى أن الغضب والحدة قد يفسدان عدل الملوك فأوصاهم بالحلم لأنه من صفات الله .

وربما كانت خير وصية ذكرها لهم هي الرحمة وأخذ الناس بالرفق واللين . (٤)

---

(١) جلستان ٤١ (٢) جلستان ٧ - ٩٢ (٣) بوستان ٥٢ (٤) بوستان ٤٢

وبعد أن انتهى من ذلك وضع لنا القواعد الهامة التي رآها ضرورية للحكم وهي أربعة منها ما هو خاص بالملوك ومنها ما هو خاص بالرعية ومنها ما يتعلق بالحكومات وأعدائها وأخيراً بالله .

أما الملوك فهم في نظره رعاة يجب ألا يناموا لأن الحكام إذا اغرقوا في النوم حرمت أجفانه رعاياهم لذة النوم أما إذا سهروا فإنها تنام آمنة قريرة العين (١) ومع ذلك فأنى للملوك النائمين الوقت الذي يفكرون عنده في حماية رعاياهم حتى ينشطوا ويقبلوا على العمل مع ما هنالك من تضامنهم جميعاً . (٢)

أما بالنسبة للرعية فإنها لا تهتم لعيوب حكامها الخاصة إنما تهتم للسبل التي يتبعونها في حكمها : « وكن منجماً أو سحراً فياضاً بالفضيلة فإن شعبك إذا قاسى فلن تفيده منها تلك هذه شيئاً ولكن كن معه حليماً فإنه يغض

---

(١) صاحبنامة ٩ (٢) بستان ١٤

للطرف عما يكون فيك من النقائص (١)

على أن من بين الرعية فريقاً أولى بالحماية وهو فريق الضعفاء والصغار والمساكين واليتامى فليكن الملك لينا طيبا مع المساكين ولكن بعيدا عن القوة على الصغار والدكاكين كما هشم المطرقة بالسندان (٢) ولكن حصين غضبك أمته للأنذار سهم (٣) وليحذر شكوى اليتامى التى تخرج من أفئدتهم المعذبة لأن السنين التى يقطعها اليد حسان تنهار فى لحظة واحدة على أثر لعنة من لعناتهم (٤) ولذلك للملوك أن يكونوا كذلك إذا تركوا أمرهؤلاء الى غيرهم مهما بلغوا من التجربة ولكنهم مع ذلك لا يمكنهم أن يوزعوا أحكامهم العادلة بين الناس الذين حولهم من بطانتهم لأن آلة لا تكون أمينة ولا مخلصة إذا حرمت من رعايتهم: «إن أكرم دائما خدامك الأقدمين يتفانوا

---

(١) صاحبنامة ١٨٧ (٢) صاحبنامة ٨٥ (٣) صاحبنامة ١٠٧

(٤) بستان ٢٢٠

في حبك ويخلصوا لك ، وإذا فقدت بهم السن فليكن لهم نصيب من إحسانك (١)

أما رجال القلم والسيف وأهل المشورة من العلماء فلا مشاحة في أنهم أولى الناس بالرعاية وهم عماد الملك والحكم بل أن حمايتهم يجب أيضا أن تمتد إلى ذرياتهم من بعدهم (٥) ورجال السيف على وجه خاص يجب أن تكون العناية بهم أشد فلا تؤخر مرتباتهم لأنه كيف يطلب الملك من الجندي ، وهو لا يدفع له أجره ولا يمنحه غذاءه ، أن يجود في ميدان القتال بحياته (٢)

وعلى كل حال يجب أن يحسن الملوك اختيار النائبين عنهم في الحكم على الأقاليم ويجب أن يكونوا من الأغنياء (٤) حتى لا تمتد أيديهم إلى مصالح الناس .

أما الوزراء فيجب أن يكونوا ممن يخافون الله لأنه

---

(١) بستان ٥٠ (٢) بستان ٥٩ (٤) بستان ٧٢ (٤) بستان ٢١

لوزير الجديد بحسب مليكه هو الذى يخشى الله أكثر مما يخشاه(١)

أما ما يتعلق بالله فقد سبق ذكره في خلال القواعد الثلاث السالفة حيث ذكر السعدى ضرورة احترام الملوك لحدود الله وأخيرا حيث تعرض إلى ذلك بالنسبة للوزراء

ولقد رجع بعد هذا إلى تناول بعض الصفات الهامة التى يجب أن تتوافر في الملوك حتى يعتدل حكمهم، ومن ذلك عنايتهم بنظر الشكاوى ودقتهم في بحثها وكذلك بعد النظر في كل شيء حتى لا يندموا على فوات الفرص وفي ذلك يقول السعدى إذا أردت ألا تندم فأعد نفسك للحرب وأنت في زمن السلم لأن تقوية الجسور لا تنفع عند اندفاع التيار، وأول شرط من شروط بعد النظر هو عدم الأخذ بالرأى الذى توحى به سرعة الخاطر لأنه رأى لم يمحص وكذلك من من يندفع إلى السيف بقوة يندم على الجرح الذى يصيبه(٢)

---

١) بستان ٢١

٢) جلستان ٢٥

وليعلم الملوك أن الحذر وحده غير كاف ما لم يرتكز إلى قوة فالحذر بغيرها مجرد خدعة ، والقوة بدونها جنونه(١) ولهو

ومن آلات القوة أيضا المال لأنه لا يكلف الملوك عناء(٢) والتحالف لأنه قوة أيضا والتفريق حتى يقول لسعة :- دقة رأس الشعبان بيد عدوك فإذا قهره انتصرت على الثعبان وإذا انهزم اكتفيت أنت شر هذا العدو .

ولا تخشى أن تطرق كل سبيل للوصول إلى هذه الغاية ولو سبيل الكذب لأنه خير من الحقيقة الضارة (٣)

نعم إن سياسة الملك من أشق مهام الملوك الذين يريدون أن يأخذوا بأيدي شعوبهم ليصلوا بهم إلى بحبوحة الطمأنينة والرفاهية والسلام والسعادة .

وليعلم الملوك أن لهم غير عدوهم الغائب عدو

١) جلستان ٢٢١
٢) // // ٢١٤
٣) // // ٢٥

آخر من نفس رعاياهم فليحذروا كليهما وليس ذلك بالأمر الهين اليسير .

ولقد ذكرنا بعض مزايا الملوك التى تؤهلهم إلى البلوغ من الغاية على وجه عام ، والآن نعود إلى الربط السعدى بشئ من الإيضاح .

وقصارى ما يجب أن يتبع فى السياسة الداخلية هو الدقة فى توقيع العقوبة على المسئ ومكافأة جميل المحسن لأن الملك ليس إلا حارسا لشعبه ولا تقوم هذه الحراسة إلا بالعدل الحازم

وقلنا إن آنس الملك خيانة أو تهاونا فى بعض خدمه وجب ألا يتوانى فى عزلهم (١) ، ولكن ليس له أن يسلط عليهم غضبه لأن غضب الملك على شعبه لا يصح أن يتجاوز غضب الأب على أبنائه (٢)

---

١) بستان ٢١
٢) " " ٢١

ولا بأس من عفو الملوك وهم أقدر عليه ولكن لا محل للعفو عن المجرم المسيء لأنه يشجعه على المضى فى طريق الشرور التى انساق إليها ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على غيره من أفراد الشعب الآمنين فمثل هذا يجب ألا تأخذ الملك فيه رحمة لأنه الذئب الذى يأكل الغنم لا رحمة له عند الراعى (١)

ولكن إذا ترك هذا الأثيم خلفا من بعده فيحسن الملك إلى هذا الخلف ويخبره بما يكفل له العيش ، لأنه فى إهماله إشراكا له مع ذويه فى العقوبة ، وهى لا يشرع أن تتعدى الذى يستوجبها (٢) وقد وضع الملك على هذا الأساس للأمير طريقة الانتقام (٣)

على أن مجازاة الخاطئين يجب أن تكون بعد

---

١) بستان ١٤
٢) « ٢٢
٣) « ١٨

تحقيقه وقيوده حتى لا يؤخذ البرىء بغير ذنب (١)

بمثل هذا العدل القائم على الحزم والرحمة يأمن الملك غوائل الشرور في داخل ملكه

أما الحاكم المستبد الذي يفعل ما تدفعه إليه أهواؤه المتقلبة فلن ترفرف السعادة بجناحيها على ملكه (٢)

وإذا أراد الله إهلاك قرية أمّر عليها المستبدين الطاغين من الحكام (٣) على أن الملك هو الملاذ الأخير لأمته فإذا كان حربا عليها فلمن تشكو وعند من تحتمي (٤)

وقد يصل الاستبداد عند الملك إلى حد الإسراف في دم شعبه وسفكه ومثل هذا الملك من العدل قتله والتخلص منه لأنه ليس إلا ذئب رعيته (٥)

ولقد كان السعدي يتساءل لماذا يوغل الملك في إرهاب رعاياهم وفي محاربة جيرانهم بقصد الفتح وهو يقول

---

(١) بستان ٢٠ (٢) بستان ١٨ (٣) بستان ٤١ (٤) صاحبنامة ٨٥ (٥) صاحبنامة [illegible]

« إنك مرحا استلأت يدك من ملك الدنيا فلن تلمس رأسك السماء إلا وعليها تاج من استبدادك » (١)

إنني أشهد الله باسم الإنسانية أن كل ملك الدنيا يكون غالي الثمن لو أنه أريق في سبيل الوصول عليه نقطة دم واحدة (٢)

على أن المستبد يعيش عيشة مضطربة غير آمنة على نفسه لأن الناس اعتادوا دائما أن يقتلوا العقرب خوفا من شره (٣) ثم إن الموت قريبا أو بعيدا سوف يضع حدا لهذا المستبد فلماذا يترك من بعده أثرا سيئا ينتقل من السيئة (٤)

وهكذا لا يكون على الملك في داخل مملكته بعد ذلك إلا أن ينشر في ربوعه نور الهداية والعلم بالإصلاح المستمر فيكثر من دور التعليم والقناطر والجبال ويحمي التجار

---

١) هامبنامه ٢٧ ٣) بستانه ٤٦

٢) « « ٢٥ ٤) « ٤٦

والضياع ويحول بينهم وبين الاضطهاد تتسع موارد الثروة ويعم الرخاء

أما أعداء الملك الخارجون فمنهم من يكون أحيانا مقيما فيه وهو يعمل في الظلام لتفكيك عراه فمثل هذا يجب أن ينفى وأن يكون نفيه إلى نفس بلده حتى لا يفسد في غيره مثل ما كان سببا في نفسه(١)

أما العدو الخارجي فيجب أولا التلطف به والسعي إلى تهدئته والصلح أخيرا معه لأن الموقف يستدعي خداعا ومهارة . ولا غضاضة في النزول قليلا لأن اليد التي لا يمكن عضها لا عيب في تقبيلها . أما إذا لم يفلح كل ذلك وجب مقابلة الشر بالشر فالكلمة عندئذ للسيف . (٢)

وإذا ما ظفر الملك بعدوه فلا يشفق عليه لأنه

---

(١) بستان ٢٠ (٢) جلستان ٢١٥

لو تمكن منه مارحمه وهو في ضعف لا يتظاهر بالخضوع والحب إلا منتظرا الفرصة التي ينقلب عليه فيها.

ولقد فكر السعدي بعد ذلك فيما يسديه للملوك من النصح ليخشعوا ويتقوا وليس عليهم رقيب يحاسبهم على ما يرتكبونه مع رعاياهم ويسرفون في ظلمهم فلم يجد غير سبيل الآخرة سبيلا يسلكه معهم ولذلك أخذ يرجع بهم إلى حقيقة موقفهم من أممهم وإلى الغاية من هذه الحياة الباطلة وإلى ما هو معد لهم عند الله في اليوم الآخر من الحساب وهكذا يقول:

"أي نفع تجنيه من وراء محاربة العالم وأنت بعد أن تخضعه بالسيف تضطر إلى تركه بالموت" (١)

"إياك أن تعلق كبير أمل على الحياة فكم تقلب الزمان فأخذ ينقل التيجان بين الرءوس" (٢)

---

(١) بستان ٤٠

(٢) صاحبنامه ١٢

"ومع ذلك فهذه الدنيا كانت لغيرك من قبل وستكون لغيرك من بعد (١) ثم إننا جميعا سيدركنا الموت فإذا أحسنت فليس هذا لأن الإحسان مطلوب لذاته فحسب ولكن لأنك سيحاسبك الله عليه (٢) فاخش الله إذن لأنه يعلم ما في الصدور (٣) على أن الناس ليخشون دائما من لا يخشى الله (٤) ثم إن الملك الذي يحمل لحماية رعيته راع أجره إذن في السماء (٥)

---

(١) صاحبنامة ٧ (٢) صاحبنامة ٢٢ (٣) جلستان ٢١٦
(٤) بستان ١٨ (٥) صاحبنامة ٢٩

٨

نظرة عامة على المجتمع (١٢٥)

سعادة المجتمع في سلامة النفوس وطهارة الأخلاق (١٢٥) - أصل السعادة التفاؤل (١٢٥) - أساس المجتمع الحرية والشرف. (١٢٦).

نظرةٌ عامةٌ على المجتمع

لا يرى السعدى أن سلطة الحاكم هى الحد الذى تقف عنده الآمال لأن السعادة والسكون لا يوجدان إلا فى مملكة الدراويش .

والسعدى يقصد من ذلك طهارة النفوس حتى تترفع الى احتقار زخارف الحياة التى هى سبب الآلام البشرية فتكون أقرب الى فهم معنى السعادة .

وإذا كان ذكر رضا ملك الدراويش فليس ذلك لأنه صوفى . ونحن نرى انه لا يجد مع تطرف المتصوفين واقفا عند حدود الدين وانه لا يأخذ من التصوف إلا الغرض منه وهو سلامة النفوس وطهارة الأخلاق .

إن السعدى رجل حقيقة وهو من المتفائلين على عكس أهل الصوفية الذين يرون أول خطوة فى سبيل مذهبهم هى فناء الإنسان ولهذا نراه يعنى بالمجتمع ويعنى بما يتعلق بالحياة الطيبة والسعادة الحقيقية ولذلك كان دائما يعلو الأخلاق فى عهد الانقلابات التى اندلع لهيبها فى بلاده .

وأخذت تفتك فيها بعيداً عن الملق للملوك نفوراً من انغماسهم في تيار اللهو والتنعم على رعاياهم حتى أنه أخذ ينصح لهم في رفق ولين وهو نصح من طريق عملي يرمى به إلى تقويم المعوج من الأخلاق والرجوع بها الى الحد المعتدل فيعرف الفرد كيف يسعد. وأقاصيصه في البستان والجلستان كلها تحوم حول ذلك وإن كانت تظهر على وجه عام لتبيين المظلوم بالقوى والفقر بالغنى والشرف بالمخاتلة وهذا مثل من ذلك :-

« سجن بعض الملوك عندما اعتلى العرش كل وزراء سلفه »
« خشية أن يتآمروا عليه ولكن هذا أشد مظاهر الاستبداد. » (١)

وكذلك يصف في بعض قصصه فرار أحد الجنود إلى صف العدو لتأخير مرتبه.

وقصارى القول أنه يقصد دائما أن يحيا المجتمع حياة قائمة على أساس الحرية والشرف.

---

(١) جلستان ٤٢

٩

السعد والأخلاق

(١٣٧)

السعدي والأخلاق

يتكلم السعدي عن الأخلاق في كثير من مواضع كتابيه البستان والجلستان ومع ذلك فقد أفرد لهذا الباب كتابا خاصا هو البندنامة أو كريما (أي الإرشاد) الذي اعترض كثير على نسبته إليه ورددنا عليهم بشأنه حين تناولنا مؤلفاته

والسعدي كغيره من الفلاسفة يقول بأن المرء يولد وفي نفسه بذرتان الخير والشر منذ ولادته (١) وهو كذلك كثير التململ من هذه الحياة كثير الشكوى منها والتوجع بسببها وكأنه نسخة بطول قصة حدوث الشاعر إلا لما وهو يشكو ويتوجع مثله ويقول إلى متى أسأل الخالق وأسأل الطبيعة وها هما يضنان على أدنى بكلمة واحدة تشفيني من داء الجهل الذي امتلكني وأنا في وحدتي

---

(١) صاحبنامة ١

موزع الخواطر علىّ لا أعرف شيئاً من أسرار هذه الحياة . وكثيراً ما حاولت أن أحطم القيود التي تربطني بها فخانني التوفيق . فبا أيها الموت متى يجيء اليوم الذي أتطلع عنده بجناحيك .

نعم إن الحياة مهما كان لها من الظواهر الساحرة الخلابة فإنها تدعو إلى السآمة والملل في بعض الناس في أسرارها ويتشككوا في الغاية منها . كفوست الذي مر ذكره ومافوست الا صورة لكثير من الفلاسفة مثل جوته الذي وصفه ومثل غيره . ولكن السعدي كان غير ذلك كان على علم تام بالحياة ومصيرها وما بعدها . كان يعلم أنها قنطرة تعبر منها الخليقة إلى الآخرة ومطية تسير بها إلى الدار الباقية . ولكنها مطية غير ذلول تحتاج في سياستها إلى

ـرياضة خاصة تختلف شدة ولينا كاللجام الذى ترخيه وتشده عند الحاجة .

ومن هنا نعلم موقف السعدى من العناء والمشقة فى القواعد التى حاول أن يضعها للناس حتى يقطعوا هذا الطريق المحفوف حبا ثباه بالأشواك آمنين ولذلك قسمها إلى نوعين : ما يرجع إلى الإنسان ونفسه وما يرجع إليها مرتبطة مع غيرها من نفوس الناس .

ـ بالنسبة للنفس مستقلة عما عداها ـ

نظر السعدى إلى الإنسان نظرة دينية توحيد نفسه بين قوتين متدافعتين لا تدرى أيهما تتبع وهى مع ذلك تحت رحمة من تتغلب منهما على الأخرى .

العقل والقلب . ولعله يقصد بالعقل الإدراك ، وبالقلب الشعور وهذان الطرفان مالم يتهذبا ربما كانا وبالا على تلك النفس التى كتب لها أن تقف وسطا بينهما لأن المدارك الجاهلة عرضة للتطرف والاستبداد ولأن الشعور الطائش عرضة للغلظة ومسايرة الشهوات

وهما على كل حال المتسلطان بحكم الطبيعة البشرية على حياة الإنسان ولذلك رأى السعدي أن يضع لجاما يعصمهما عن الزلل ويوجههما إلى السبيل الطيب النافع المؤدي إلى السعادة (١)

وكذلك كان أول ما يلفت النظر إليه في هذا المقام العلم لأنه أول رأس مال الإنسان . لولاه لجهل حقيقة نفسه وحقيقة الحياة وحقيقة الله ولظل فيها الدهر خاسرين . فالعلم عنده أول مرحلة يجب على الإنسان أن يقطعها وأول نقطة يجب أن يسعى وراءها حيث كانت . لأنه متى حصل عليها حصل على الكمال النفساني الذي يصرفه إلى عمل الحسنات فيكتب له النعيم .

ولا حاجة بعد أن تكلم عن العلم على الوجه الذي سلف أن يذكر شيئا أيضا عن الجهل وما يجر من شرور

---

(١) صاحبنامة ١١٨

والآفاق لأن ذلك مفهوم بالاستنتاج العكسي ومع ذلك فإنه يحذر الجاهلين من سوء المصير فيقول: "إن النار كانت للجاهلين لأن حياة الجاهل لن يكون لها نصيب من حسن الختام"، وهكذا يحض على العلم وطلبه من طريق عملي ما دام أن إغفاله يقود الإنسان إلى مثل هذه الخاتمة.

ويدعو بعد ذلك إلى استكمال الشعور النفساني من طريق الاستقلال الشخصي بأن يزهد المرء في زخرف الحياة وألا يمد عينيه إلى ما في أيدي الناس من طريق الرضى بالحظ المقسوم والقناعة بالقدر اللازم لقوام النفس والبعد عن الاستدانة لأن الدين قيد من حديد لا يتفق مع ذلك الاستقلال.

ولكي يواجه الفقراء من طريق مقنع فيحملهم على اتباع ما سلف، يذكر لهم ما في الفقر من خلود النفس القانعة إلى الهدوء والسكون لأن الجري وراء جمع الثروة

أدعى ما يكون إلى الاضطرابات وزعزعة تلك الراحة (١) ومع ذلك فإن الانصراف إلى هذا السبيل يقوى في المرء ملكة الحرص على المال فيحجبه عن الناس وعن نفسه أيضا وهو غاية ما يكون من الجهل وقصر النظر (٢)

وأما الذين حسن لهم الحظ وسخت عليهم فيرسن الرزق فأمنوا شر الحاجة فإنه أيضا يحذرهم من الاغترار بما في أيديهم من النعمة ويطلب إليهم أن يحتقروها وأن يقسوا دائما على أنفسهم حتى لا تنتفخ أكبادهم فيغتروا بالحياة الفانية عن الحياة الباقية .

هكذا يقف مع الناصحين موقف المرشد الحكيم فيهديهم إلى سبيل الحكم على أنفسهم بأنفسهم قبل أن يوقعهم الحظ الذي ابتسم لهم تحت حكم غيرهم وقد يكون قاسيا (٣) لأن الحظوظ متقلبة غير مستقرة ولأن تلك النعمة قد تزول

---

(١) صاحبنامة ٩٧ (٢) صاحبنامة ٢٢ (٣) صاحبنامة ٥١

فيبـ مطمئنه . ولذلك ينصحهم ألا يتخذوا مكانا عاليا فخير للإنسان أن يمشى على قدميه من أن يمرح فوقها وهو على ظهر فرس إذا جمحت به دقت عنقه (١)

ومع ذلك فإن القناعة حتى فى حالة يسر الإنسان واجبة لأنها تبعد به عن فوائك الأمراض والأسقام وتحقق له نعمة الصحة التى هى من خير كنوز الحياة (٢) على أن الفقير الذى لا يعرف كيف يقنع بما فى يده إنما يجنى على نفسه لأن الحقيقة ليس إلا جهلا بها (٣) - بالنسبة للنفس مرتبطة بما عداها -

لا يوصى السعدى هنا بأكثر من الطيبة فيقول أنها خير قواعد الأخلاق الكريمة لأنها كالشمعة ترتفع نارها إلى السماء (٤) والطيبة لا تنشأ عن حساب أو تفكير ولكنها فيضان تبعى يدفع به الإنسان إلى اراقة بغيره

---

(١) صاحبنامه ١٢٥ (٢) صاحبنامه ٦١

(٣) بندنامه ١١ (٤) بستان ١٥

من الناس ومعونتهم في أوقات شدتهم. وما أسمى نفسا تفيض بها رحمة الله فوق آلام الجنس البشري.

وإذا كانت الطبيعة ذيناً ان زمامه في يد القلب لا يملكه الإنسان ولكنه إن كان أن يوجه خواطره إلى ما فيه صلاح قلبه به والعذاب في هذه الحياة عام لكل إنسان منه نصيب ولو بمقدار. إن العاقل ليتعذب لغيره كما يتعذب لنفسه وكما [illegible] الصحيح وهو على مقربة من آلام المريض الذي إلى جانبه (١)

ولاشك أن الإنسان لا تطيب نفسه نحو المتألمين إلا إذا قاسى هو أيضاً. ولكن كيف لا نفكر في ما يعاني المريض من الألم وهو على سريره ليس إلى جانبه أحد يخفف ما به ولو قليلا بالكلام. نعم إن ليل مثل هذا المريض المنقطع عن الناس وعن حنوهم لليل طويل

---

(١) بستان ٤٤

انعقدت فوق سمائه سحب مدلهمة من الأحزان والهموم(١) وكم ضمت جوانح الليل من قوم باتوا ناموا جياعاً لا يشعر بهم أحد. وأنفس ذاقت من الآلام لم تنقص في سبيلها دمعة.

وربما كانت الطيبة واجبة لا ليأسوا الإنسان على أخيه الإنسان شفقة به فحسب كما سبق ولكن ليكون لمنزلة دينية في عنق غيره ربما كان في استرداده فائدة تعود عليه لأن الطيب مع الناس يدفعهم إلى أن يكونوا طيبين معه حتى نسج السعدي على منوال ما جاء في الإنجيل فقال: لا تعامل سواك بما تكره نفسك أن يعاملك به. وأن الضرر الذي لا ترضاه لنفسك كيف ترضاه لغيرك من الناس.

ومن وسائل الطيبة أن يتجه الإنسان إلى العفو عن المسيئين لأن الذي لا يعفو عن مسقط لا ينتظر عفو الناس عنه إذا ذل (٢)

---

(١) بستان ٤٤ (٢) جلستان ٤٦

ومن هذا ترى أن المعروف الحقيقي من مصلحة الإنسان أن يؤديه لغيره لأن الذي يعرض من تحته ينتظر المعروف لنفسه ممن هم فوقه (١)

على أن الذي لا يعفو وهو قدير على العفو لم يتعذر في أيام محنته وهكذا من لا يكون طيبا مع أبيه لا يكون أبناؤه طيبين معه (٢)

وليس للمعروف حد حتى ولو كان من يطلبه منك عدوا لك وهكذا يقول السعدي : ما خطر لي مرة أن تشفى من عدوي وهو على سرير الموت لكني إذا مات نفسي لست الزوال (٣)

وفوق ما سلف فإن الأعمال الكريمة تكسب الإنسان اعتبارا يبقى بعد موته (٤) بيد أن الذكرى الحسنة بعد موت الإنسان هي نوع من الخلود ولقد كفى

---

(١) جلستان ٤٥ ح ٤ (٢) جلستان ٦٥ ح ٢ (٣) جلستان ٩١
(٤) صاحبنامة ٤٩

للحياة الأخرى المقبلة حتى أن السعدى يقول فيمن لم يوفقه إلى هـ النعمة: لقد دفنه الزمن ولكن لم تدفن ذكراه السيئة. (١)

ويمكن أن نلخص كل ما سلف فى أن على الإنسان أن يستكمل نفسه من طريق العلم والفضيلة والرحمة لأنها السبيل الوحيد إلى مكارم الأخلاق والغاية المنشودة يجب أن تكون غاية كل إنسان سيما وأنه يوم يبعث محاسب عما فرط فى حياته حيث يسأل يومئذ ماذا الذى قدمت يداك للآخرة هو أنولك (٢)

وفى هذا المقام ربما لمسنا عقيدة السعدى نحو القضاء والقدر لأنه جاء فى بعض كلامه "لماذا تعتب على الأقدار بدلا من أن تعتب على نفسك" ومع ذلك فسيأتى باب خاص برأيه بالنسبة للدين والتصوف

---

(١) صاحبنامة ١٢٢ (٢) جلستان ٢٨١

عقيدة السعدى

(١٤٨)

بالنسبة لله

كان السعدي سنيا يحترم الكتاب والسنة ويعمل بهما وهو يقول مادام العالم مستقل تتعاقب عليه التغيرات وتتلاحق فيه الخلائق اثر بعضها فهو إذن عالم خالد يحكم عليه سيد خالد هو الله سبحانه وتعالى الذي لا شك في وجوده والخليقة أثر من آثاره: «إني أتحدى من يأتي لي بورقة واحدة من أوراق الأشجار ليس عليها ما يثبت وجود الله (١)»

ولقد كان السعدي ذا هيام بالطبيعة يملؤ بها عينيه لا من طريق الإعجاب بحسنها ولكن من طريق تكشف مكنون كمالها، وفي ذلك كبرنارد دي سان بيير في أبحاثه عنها شاملها تأمل العالم الصبور فإذا بها دقيقة

---

(١) صاحبنامة ١٩٥

حشرة تتبعها فى وقوفها وحركتها وطيرانها وهبوطها وامتحن أجنحتها وأرجلها وكل دقيقة من دقائقه جسمها حتى لقد قال أن الله وضع وسائل حياة الطيور فى أجنحتها ليمكن لها أن تحصل على غذائها .ثم يتدرج من ذلك إلى ما هو أرقى منها فيقول للانسان :-

« انظر مبلغ نعم الله عليك إنك لم تكن غير بذرة خفية ليس لها إدراك ولا عقل ولكن الله منحك إياهما ، ومنحك الروح والشعور والجمال والنطق والحرص ، والتفكير والذكاء . ثم خلقك فسواك بشرا سويا جميل الصورة .»(١)

وبعد ذلك ينتقل إلى تسخير الكون للانسان فيقول : « ولقد سخر لك الشمس والقمر سراجين وهاجين فى النهار والليل وأرسل الرياح والأمطار

---

(١) هلستائن ٨٠ ،

بين نبات بذوره في الأرض وجعل لك عن النحل بلا
حلو الطعم وسلطك على الأزهار تستنشق عرفها الزكي
وعلى الأشجار تقطف ثمرها الشهي وعلى المناجم لتستخرج
من بطونها ما حوته من مختلف الخيرات والكنوز (١)
وهكذا كان استقراؤه للطبيعة سببا أدعى
لتثبيت إيمانه بوجود الله .

بالنسبة للقضاء والقدر

لقد سبق أنه روينا عن السعدي قوله : " لماذا
تعتب على الأقدار بل لعمرك إنك تعتب على نفسك "
وأمسكنا عن غرضه من ذلك . وهل في هذه الجملة الوجيزة
ما يكفي لمعرفة رأيه في القضاء والقدر ولكن السعدي
على ما نظهر جبري يعتقد كل الاعتقاد بهما : بأن من أحد
بيده مفاتيح الحظ والله وحده القدير على كل شيء (٢)

(١) بستان ٢٢٧

(٢) بستان ٢٢٦

مالم يكتب لنا من الأزل لن نحصل عليه وما كتب لنا فيصيبنا أينما كنا(١) وهكذا سعينا خلف رزق يومنا أو لم نسع يأتنا الله به فلم نجهد أنفسنا. ولن غير ذلك شيء كثير منه :

« لا يظن الإنسان أنه بالغ غاية متى سلك سبيلها ولكن الله وحده هو الذي يوجهه إليها ويبلغه إياها (٢) »

« وإن العاقل رغما من يقظة حرصه يسعى عبثا للتخلص من ساعة الخطر كما أن المجنون بالرغم من ضلاله قد ينجو منها (٣) »

« وإذن فمادام أن كل إنسان احتراس غير مجد ومادام أن الفوز الذي لم يقسم له يتحقق مهما بذل فيه من الجهد (٤) فنحن المجنون إذن أن نحارب الأقدار. والذي يمر بكل هذه الخواطر لا يخامره شك في

---

(١) جلستان ٢٤٤ (٢) بستان ١٢٨ (٣) بستان ٧٩ (٤) قصيدة فارسية طبع كلكتا ص ٢٤٢.

اعتقاد السعدي بالقضاء والقدر اعتقاد أعمى مطلقا ولكنه مع ذلك يعود فيقول :

« وإذا كان الأمر كذلك فلم تشكو ولمَ لا ترضى بالواقع وتعتصم بالتفاؤل . فاعتقد أيها الإنسان أنك سعيد مهما كان من أمرك سيما وأنت ليس في يدك أن تجعل النحس سعدا (١) ولقد خلقك الله طاهرا لتحيا حياة طاهرة (٢) على أنك مهما جمعت فضلات الآنية فإنها لن تعود إلى مثل ما كانت عليه ولكن ما دامت يداك المهملتان تملأ اللتان حطمتاها فاجتهد في إصلاحها كما إذا قدر لك أن تقع في هاوية فاسع إلى الخروج منها (٣) لذلك لو سعيت ساعدك الله (٤) ثم من يدري أن الله أراد أن يبلوك بما تلاقيه من المحنة والشدة وأن ذلك من بعض درجات الكمال فرقي

---

(١) صاحبنامه ١٢٢ (٢) بستان ٢١٧ (٣) بستان ٢٤٥ (٤) بستان ٢٩٥

عملك واشكره على ما قسم لك فإنه يحبس نعمته عن القوم الكافرين (١). وقصارى القول لا تعذب نفسك عبثا واقطع حياتك بالرضى والفرح واعمل على أنك تتقرب إليه وإن كنت تجهل ما سيكون من أمرك عنده.

ويظهر من هذا الجزء الأخير أن السعدي رأى ما يكون للقضاء والقدر على عقول الناس من التأثير السيء لأنه قد يدعو إلى السقوط والتشاؤم والجمود فاستدرك بعد نظره أنه مع التسليم بالقضاء والقدر لا يعلم كل إنسان من أمر حظه الذي كتبته له الأقدار شيئا وقد يكون حظا سعيدا فلم يستسلم لليأس والتشاؤم سيما أن الله يحب القوم العاملين.

ومن هذا نرى السعدي أيضا قد أعلى اهتمامه خلال هذا المذهب الذي كان مثار الخلاف في الإسلام

---

(١) بستان ٦٢ ؟

زمناً طويلاً

بالنسبة للتصوف

إن هذا التيار الصوفي بدأ ظهوره على رأي ابن خلدون في أول صدر الإسلام. قال:

"...... إن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف.(1)

وفي القرن الثاني ظهر هذا المذهب باسم التصوف (وأصل) أساس هذه التسمية [illegible] المتقين لو لبسهم الصوف

(1) مقدمة العلامة ابن خلدون ص ٥١٢

وكانت غاية همّهم أن يذروا نفوسهم لسلطان الله بغير أن يتعرضوا إلى معرفة كنهه

ثم أخذ التصوف بعد ذلك يتقدم يوما فيوما ويكثر مريدوه ولكن على أسلوب أوسع فما كان أساسه عندهم مجرد الخضوع لله فحسب بل أيضا الهيام به إلى حد الفناء في ذاته تعالى وهذه الطريقة هي التي كانوا يطلقون عليها اسم «الرضى» انتقلت أخيرا إلى مذهب حلولي .

ولكن التصوف تشأ منه على أثر ذلك تيارات مختلفات فبينما كان بعضهم يحاول أن يقف موقفا متوسطا بين آرائه الخاصة به وبين الحدود التي أوجبها الدين جاعلا غرضه تحريم الأخلاق والتعبد كان فريق آخر يتوسع فيه إلى أن جعل الذهول والانجذاب أساس طريقته .

ويروى أن أبا يزيد البسطامي هو صاحب هذه الطريقة حتى لقبوه بأبي الصوفية . وهذا ليس له مقام جليل في الشرق

ولقد بلغ من أمر التصوف وشيوعه أن انتقل من الصدور إلى السطور فوضع نفر من كبار المفكرين كتبا عديدة فيه.

ونحن نعلم ما قضاه السعدي من السنين الطويلة في كلية دار السلام عاكفا على الدرس وكان التصوف آخذا في الانتشار والذيوع بفضل أكبر زعمائه السهروردي. وهكذا كان لابد للسعدي أن يتأثر بتعاليمه وهو بعض أساتذته ولكنه لم يكن وحده المؤثر على نفس هذا الشاعر. وقد امتد على ربوع تلك الكلية وتلك ظل الإمام الغزالي رحمة الله عليه.

وهكذا كان منشؤه تأثر السعدي بهذا المذهب ولكي نقف على نوع هذا التأثير عليه يصح أن نرجع ثانيا إلى مقدمة العلامة ابن خلدون فيلسوف المؤرخين فقد ذكر الخلافات الجوهرية بين السهروردي والغزالي في تعاليمهما وقد قسم لنا بعد الإحاطة بهذا المذهب إلى أنواع

يرجع بعضه إلى أحوال خاصة بالتعبد وإقامة حدود الدين العامة. وبعضه خاص بما للتصوف ورياضته من اللذة الروحية ولا سيما في حالات التجلي التي تعرض للمتصوفين وهو ما أفاض فيه السهروردي في كتابه (عوارف المعارف) وقد أفاض الإمام الغزالي في تهذيب النوعين أيضاً في كتابه (الإحياء) وربما كان من امتيازه هو محاولته وضع رأي وسط بين رجال الدين يقولون أنهم طلاب عقل وتأمل وبين المتصوفين الذين يرعمون أن الله اختارهم وكشف الحجاب عنهم ولذلك يعرفون الحقائق ولكن محاولته لم تفلح ولم تفعل أكثر من إيقاظ المشاعر الثائرة وهكذا اقتصر ما أدخله الغزالي من الإصلاح على هذا المذهب على التوسع في علم الأخلاق مع أن علم الأخلاق ليس إلا وسيلة إلى التصوف الذي أهم أركانه إيجاد الصلة بين النفس وبين الله.

وربما كان من الواجب قبل كل شيء أن نلم بماهية التصوف وتعريفه. فالغزالي يعرفه بقوله إنه: انتزاع النفس

من سلطان الشهوة وتجريدها من ميولها الأثيمة وغرائزها القبيحة حتى إذا طهرت القلوب صح أن تكون محرابا لله »

ولكننا نرى هنا أن الغزالي لم يوفق إلى وضع هذا التعريف وانما استنبطه من الغاية المقصودة من التصوف وهو تعريف جامع غير مانع إذ من الجائز إطلاقه على أمر ديني بغير تصوف .

وفي الواقع أن من الصعب الحصول على هذا التعريف إلا من طريق الاستنباط كما فعل الغزالي لأنه يقول بعد ذلك أن التصوف ليس مما يتم من طريق التعليم وإنما هو حال انتقالي وتبدل في الشخص من حيث أخلاقه كأنما يريد أن يقول أن التصوف لا يمكن فهمه من طريق التعريف ولكن من طريق الشعور .

وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن رجال الدين يتلقون من الكتاب والسنة من طريق العقل أما المتصوفون فلا يتلقون إلا لحكم ما تقصد لهم خيالات تصوفهم وهكذا

ويظهر أن من الممكن فهم التصوف من الطريقة النظرية ولكن من الصعب تطبيقه إذا لم يمنح الله من يتعرض إلى ذلك حالة الذهول والانجذاب. فالتصوف والحالة هذه تتطلب عند العامل به استعدادا خاصا حتى اضطر الغزالى أن يقول أن تطهير القلب من كل ما عدا الله هو أول أركانه وأن مفتاحه في استغراق القلب في الصلوات وأن آخر مرتبة له هو أن يتلاشى الإنسان في الله ومع ذلك فهو يرى أن هذه المرتبة ليست إلا طليعة هذا المذهب وأول دهليز يجتازه المريد إليه.

ولكن السعدي أبعد الناس عن مثل هذا الاتجاه ونحن نعلم مما كتبه عن أخلاق المجتمع أن كل تعاليمه فيها عملية فهو لا يسلم بإمكان الانفصال عن الأرض ولا بحالة التجلي التي كانت قطرا على هلال الدين.

على أن للسعدي خواطر كثيرة يذهب كل من يقف عليها أنه من المتصوفين. ومن ذلك:

« إنه سنتوى الحكمة تنفذ من الغايات البعيدة »
« إنني أرى أمام الشمس كأنني لم أكن » (١) ثم
« ماذا يهمني لو احترقت . لقد كنت بعيداً عن ضوئها
ومع ذلك فلم أسلم من حريقها أو نيرانها » (٢)
« ولهذا فإنني أحييك أيها الموت أيها المتواضع السماوي »
« وفي خلال رقصهم يرفعون أيديهم ويحركونها لأن
باب التموجات السماوية ينفتح أمامهم فهم بمثل هذه
الحركات يطردون عنهم خيال الحقيقة » (٣)
« إنك لن تعرف سر نفسك حتى تقدس سر وجودك » (٤)
« لقد أظلم عقلهم واضطربت نفوسهم وسدت آذانهم
عن صوت الناصح » (٥)
وغير ذلك شيء كثير متناثر في كتبه ولكنه لعله
بذلك كله أراد أن يذكر لنا صورة من أحوال المتصوفين

---

(١) بستانه ١٦٤ (٢) بستانه ١٦٨ (٣) بستانه ١٦٧ (٤) بستانه ١٦٦
(٥) بستانه ١٥١ .

لأنه كان كما علمنا لا يسلم بحالة الذهول التي كانت نظراً على الرومي وعلى أمثاله من المتصوفين وهي التي تعتبر أول خطوة مرتبة من مراتب التصوف وفي طليعته.

ولكنه كان يأخذ من التصوف ما كان نراه لازما للأمور الأخلاقية و ... مادة الدارسين حتى أنه يمدح عند الصوفية ما هم عليه من الصبر وسكون النفس وطهارة النية والبعد عن الانتقام والنفاق

"هكذا لا ينظر جمال الرحمة للانطهارة الذ (١)

أما الصلوات الطويلة التي يقصد بها إلقاء النظر في باب مفتاح حبيبهم". (٢)

إن السعدي ينظر إلى الأخلاق من وجهتيها الدينية والعملية معا أما بالنسبة للغاية البعيدة من مذهب المتصوفين وهو عدم الاهتمام بأشكال العبادة

---

(١) بستان ٢٤٤

(٢) " ١٤٥

المختلفة ووحدة الخير والشر النظرية فإننا نراه سكت عنها وهو يهتم لحسن السمعة التي ينفر منها جلال الدين ويأمر بحب النوع البشري الذي لا يأخذ به العطار (١) ولا يذهب كثيرا إلى احتقار المال كما هو شائع من عامة المتصوفين .

وهكذا بينما يقول العطار أن عدم الحركة هو غاية الحياة الروحية نرى السعدي ينصح الناس بالانصراف إلى كل شيء إلا ذلك الاتزان الذي لا يفهم له معنى ولا حكمة (٢)

وكذلك بينما العطار يشرح في قصيدته الكبرى ما يحس الصوفي من اللذة عند فنائه في الله نرى السعدي ينظر إلى الله في ذاته ولكن باعتباره العامل الأول في نظام لهذا الكون وهكذا لم يستفد من

---

(١) منطق الطير ١٩٠

(٢) بندنامة ٤٤

الصوفية إلا أنه يحصل لخواطره الأخلاقية من تجاريبه الكثيرة قواما روحانيا . فالتصوف فى نظره ليس لغاية وإنما واسطة لإصلاح أهل عصره . ولهذا يمجد فكرة التضحية ولا ينفر من الانتقام ولا من الكذب إذا كان ذلك يجر إلى حقيقة ونفع (١)

وقصارى القول أن السعدى أميل إلى رأى الذين لا يشغلهم شاغل من الدين وحدوده غير معتبر تلك الحدود كغاية . ولكن كمكمل للحياة الاجتماعية حتى أنه بدلا من التبجح بالفناء فى ذات الخالق ينصح بالنشاط والعمل من طريق الدين ويدعو الناس إلى التقشف لأن المعدة الجائعة الصائمة تحول بين الشخص وبين العبادة (٢) . وقال لا أدرى ما معنى هذا التصوف الذى يزعزع سعادتك . وما معنى هذا الشك الذى ينساق إليك

---

(١) جلستان ١

(٢) جلستان ٢٩٤

السعدي وفن الكتابة (١٦٥)

الوصف الاجمالي لطريقة الكتابة (١٦٥) ـ الأشخاص الذين جاء ذكرهم في التاريخ والذين ذكرهم السعدي (١٦٦) ـ الفكرة والصورة (١٦٧) ـ أساليب مختلفة (١٦٨) ـ المقابلة (١٧٠) ـ الاثبات والنفي (١٧١) ـ المحاورة بين الأشخاص (١٧١) ـ إجراء الحوار على ألسنة الاحياء والأموات (١٧٣) ، الاقتباس (١٧٤) .

«السعدي وفن الكتابة»

يكفي كما ذكرنا فيما سبق أن يقول دولتشاه أن السعدي هو أحد أنبياء الشعر الثلاثة

وفي الواقع أن السعدي كان رقيق الأسلوب حاضر الخاطر غزير المادة ينساق في أدبه إلى الحكم العوالي سواء بفطرته أو بما اكتسبه من ممارسته العلوم وملازمة العلماء وقد بنا الأدوار الطويلة التي كان فيها عجيبة لخير قوالب التهذيب والتعليم.

وإن الشاعر الفارسي الذي ينظم باللغة العربية ويصوغ شعره فيها بأحسن الأساليب وأرقها لا يمكن أن يصل إلى ذلك من باب السليقة كما عند بعض شعراء اللغة العربية لأنه أجنبي عنها ولابد أنه نظم بالشعر فيها بعد أن قرأ فن العروض والبلاغة حتى أن مجازاته واستعاراته وما أخرجه قلمه من شتى صور البيان في اللغتين لأنظمه دليل على اطلاعه على هذه الأصول.

وإذا جئنا إلى الجلستان والبوستان وصاحبنامة وغيرها لرأيناه يذكر في خلال كلماته كثيرا من الأسماء الدالة على كثرة البحث وسعة الاطلاع، مثل ما أخذه من القرآن والحديث بل والإنجيل كما يذكر الطبيب جالينوس والفلكي جوشيار (١) ومن أمراء المسلمين حاتم الطائي (٢) والإمام علي (٣) وسليمان (٤) وعمرو بن الليث (٥) وعمر بن عبد العزيز (٦) وهارون الرشيد (٧) والمأمون (٨) والملك الصالح (٩) وكما يذكر من الصوفية ذا النون (١٠) وعبد القادر الكيلاني (١١) وصدر الدين خوجند (١٢) وشبلي (١٣) ومعروف كرخي (١٤) وجنيد (١٥) وبهلول (١٦) وبايزيد البسطامي (١٧) وكما يذكر من ملوك الفرس وأبطالهم فريدون (١٨) ورستم (١٩) وجمشيد (٢٠)

---

(١) بستان ٢٥٠ (٢) بستان ١١٩ – ١٢٤ [illegible] الجلستان ٥٥ و ٦٥ و ٧٧ و ٨٠ و ٩٠ [illegible] (٣) بستان ٢٧٥ (٤) بستان ٩٥ (٥) جلستان ٧١ (٦) بستان ٧٢ (٧) جلستان ٥٠ و ٩٨ (٨) بستان ٦٥ (٩) بستان ٢٠٢ (١٠) بستان ٩٩ و جلستان ٨٤ (١١) جلستان ١٠١ (١٢) جلستان ١٠٩ (١٣) بستان ١١٢ وصاحبنامة ١٩٢ (١٤) بستان ١٩٩ و صاحبنامة ١٥ (١٥) بستان ١١٢ (١٦) بستان ١٩٥ (١٧) بستان ٢٠٤ (١٨) جلستان ٢٧ (١٩) جلستان ٥٣ و بستان ٧١ و ٢٤ (٢٠) جلستان ٤٦ و ٤٧ و بستان ٧٦ و ٢٧ و ٤٨ بستان ٤٥

زداريوس (١) وداستان (٢) وبهرام جور (٣) وانوشروان (٤) واردشير بابكان (٥) وشبههم بل أنه يذكر أيضا مجنون وليلى (٦) وكل هذا دليل على أنه قرأ كثيرا ولم يفته باب من أبواب الفقه والأدب والتاريخ والشعر وغيرها إلا اغترف منه . فرجل هذا مجهوده لابد أنه قرأ في علم المعاني والبيان على ماذكرناه حتى وصل إلى مقام هؤلاء الانبياء الثلاثة .

ولقد كان السعدي يسير خواطره وعظاته وغيرها أنواعا شتى تختلف باختلاف الموضوعات التي يطرقها ويخوض فيها فتارة يسمو بخياله إلى أرفع مكان من سموات الشعر وتارة يقتصر فيه على الأقاصيص المنثورة أو المنظومة وهو مدفوع في ذلك بأسلوب أهل زمانه بصرف النظر عما إن كان مجددا فيه كما سنراه فيما بعد وربما كان لنا كلام بعد النظر

---

(١) بستان ٢٥ (٢) بستان ٢١ ، (٣) بستان ١٥٥ (٤) بستان ١٧-١١-٢٠ وجلستان ٢٦ - ٦٥ - ٨٤ - ٩١ - ٩٠ (٥) بستان ١٦١ (٦) بستان ١٥٩ وجلستان ٢٧ و٨٨ ، ...

ودقة الملاحظة وقوة الاستنباط .

وعلى كل حال فقد كانت عادة السعدي حين يكتب أن يجري أولا خلف الحقيقة حتى إذا وجدها كساها ثوبا أنيقا من الصور الفتانة . وقد ذكر هو هذه الطريقة في صدر بستانه وأشار إليها أيضا في خاتمة جلستانه : «وقد حرصت على أن تمر تلك نصحي بسلك البيان وأن يمتزج مرير الدواء الذي وجهته إلى مرضى الأخلاق بعسل المزح ..»

على أننا موردون هنا بعض الأمثلة على هذه الطريقة فمثلا :

«إما أن تقضي على صغار الثعابين بعد قتلها وإما أن تدعهم ولكن فر في الحال ..»

فالحقيقة الأولى هنا هي ألا تحتقر عدوك مهما كان ضعيفا. أما الصور التي يغلف بها هذا المعنى فهي :

«إن من الحصى ما يتراكم فيتكون منه جبل . وإن من النمل ما لو اجتمع لغلب الأسد وإن من الشعرات التي لا تزيد

فى سمكها عن خيط من الحرير لو أنك جدلتها لكانت أقوى من السلاسل ..»

وقد يقتصر فى المعنى على صورة واحدة كقوله: «يعد الحقود جدارة السعدى نقصا وهى كالوردة ولكنها شوكة فى عينه ..»

وفى بعض الأحيان يسلك العكس فيخرج المعنى من نفس الصورة كما جاء فى قصة الجلستان البديعة(١):
«كان السعدى فتى يؤثر فيه الحر فى فصل الصيف فلجأ إلى ظل دار فى طريقه ولكن فتاة ناضرة خرجت فجأة من دهليزها وقدمت له ماء مثلجا ..»

وهذا الحديث واضح فى ظاهره ولكن للسعدى غرضا آخر منه وهو ظمأ تصوفه الذى يحرق قلبه وأنه بعيد عن أن يرتوى مهما كان هذا الماء عنده باردا.

---

(١) جلستان ص ٩٢

وهكذا تدور مؤلفات السعدي حول الخواطر والصور على مثل ما أوردناه. ومع ذلك فإن في بعض الأحايين يلجأ أيضا إلى المقابلة بين الأضداد في تعبيره فيخرج من ذلك إلى غايات موجزة في غاية الحلاوة ومن ذلك قوله (١) :

« ولم يكن في وسعي أن أشتري لي حذاء وقد قصدت إلى مسجد وأنا حزين ولكنني ما كدت أجتازه حتى وقعت عيناي على رجل فقد قدميه فحمدت الله على النعمة التي أنا فيها »

فهل ترى تصويرا أبدع من هذا التصوير وهو يضع هذه الحكاية القصيرة سلسلة من أسمى الجزالة والموعظة الحسنة على مثل هذا الأسلوب الرشيق ومن ذلك أيضا :

« تصدأ المرآة إذا قابلها الزفير ولكن زفرات الندم تجلو مرآة القلوب » (٢)

وهي مقابلة بديعة لا تقل جمالا عن المقابلة السالفة

---

(١) جلستان ١٧٤ (٢) بستان ٤٦٦

وهناك حالة أخرى غير الحالات السالفة يتوسع السعدي في الفكرة من طريق الإثبات والنفي كمدحه الكرم ثم تعقيبه هذا المدح مباشرة بذم البخل (١)

وقد يكون هذا التوسع في صورة محاورة بين شخصين أحدهما ينفي ما يثبته الثاني كتحاور الرجل مع ولده في السفر ومضاره (٢) وكذلك في الفقر والغنى (٣)

وكثيرا ما كانت حكم السعدي وخواطره تجري على ألسنة الأحياء والحيوانات كما كان حاصلا في القرون الوسطى. على أنه كان يفعل ذلك مستنطقا الموتى كالجمجمة الملقاة على شاطئ الدجلة وهي تخاطب صوفيا على سبيل الوعظ. (٤)

وكالمناقشة بين العلم والستار المنصوب على باب القصر وقد أخذ الأول يشكو للثاني أن كل الحمل عليه وحده (٥)

---

(١) راجع الباب الثاني والثالث من البندنامة (٢) جلستان ١٨٥ (٣) جلستان ٩٢

(٤) بستان ٥٠ (٥) جلستان ١٤٧

وربما كانت هذه القطعة من مفردات القطع لما فيها من قوة الخيال والتأثير :

" وإذا بأحجار أخذت تتناثر على المائدة فتكسرت اوانى البلور وتحطمت الأوعية التى على شكل القرع وهكذا أخذ النبيذ يسيل على جوانب الأوانى كالأوزة المذبوحة يتدفق الدم من جرحها وكذلك القدر التى ظلت فى مرقدها تسع شهور فقد أخذ ما فيها يسيل على جوانبها وانشقت كذلك القربة من إحدى جهاتها فأخذت القنينة تحدر دمعها كالدم » - ومما يدل على مكانة السعدى أننا عثرنا على قطعة فرنسية يصور كاتبها صخرة كان ينحت فيها فنان تمثال الرب لمعبد البرتينون وكانت الصخرة تتألم تحت طرقاته وتشكو فقال لها إن هذه الطرقات هى التى تجعلك زينة الأجيال الخالدة .

وكنا نظن أن هذا أول خيال من هذا النوع فإذا بالسعدى الذى هو أقدم من هذا الكاتب بقرون

قد سبقه فيه حيث كان صوت الأنين يخرج من بعض
نجوات الأرض راجية من النزاع أن يرتفع برًا وهو
يهوى عليك بفأسه (١)

ولو أننا أردنا أن نسترسل في إيراد الأمثلة
الدالة على مقدرة هذا الشاعر الفذ لاضطررنا
أن ننقل جل ما سطره ولذلك نكتفي بهذا الخيال
الأخير وهو أن أميرا أى في الحلم أحد أسلافه وقد
استحال جسمه إلى تراب الأعين الآية للسلطنا
تنظر إليه .....

ثم إن خيال صامت يتكلم عن حقيقة أليمة
من حقائق الحياة في الفناء وتقلب الأيام وغرور
الدنيا وكل ما يمكن أن يخرج من خلال هذه الكلمات
من الحكم والعظات

(١) جلستان ص ٥٢

ومع ذلك فقد اقتصرنا هنا على إيراد ما انفرد به السعدى من قوة الخاطر وأثره فى أدبه أمّا ما يشترك فيه مع غيره من الخيال فكثير

أما أقاصيصه فإنه كثيرا ما يضمنها الأمثال السائرة ليتعظ بها الناس على مثال الفريد دى موسيه فى بعض أقاصيصه .

أغراض السعدي الشعرية (١٧٥)

- أغراض السعدي الشعرية -

إن نفوس الكتاب والشعراء لا تختلف عن نفوس غيرهم من الناس لأنهم بشر مثلهم إلا أنها تدق عنها في الشعور وتمتاز عليها في التهذيب وقوة التصوير وشتان بين رجل ساذج جاهل بسيط وآخر له فوق هيبة السماء هيبة الاكتئاب وقد تكلم الأول في شأن من الشؤون فلا يفهمك ولا يدري غرضك. وتكلم الثاني فيندفع في الحديث اندفاعا تحسبه ينبوعا صافيا عذبا أو شعلة متأججة ثائرة أو قيثارة تفيض أوتارها المضطربة شجونا تطربك أو تبكيك وقد تشد أعصابك وقد ترخيها. مثل الأول كقطعة من البللور لا قوام لها ولا شكل حتى لا ينفذ منها النور ومثل الثاني نفس تلك القطعة مرت بها يد الصاقل الماهر فسوت جوانبها وعددت سطوحها حتى أنك لترى وجهك فيها وقد رق ماؤها وانجلى صفاؤها وهي تعكس آلاف الصور

على سطوحها العديدة

وإذا كان هذا الفرق ملموساً بين الشعراء وبين غيرهم من عامة الناس فقد تلمس أيضاً فيما بين الشعراء أنفسهم لا في الدائرة التي ذكرناها ولكن في الأثر الذي يتركه كل منهم.

نعم إن المؤثرات النفسية في الحياة واحدة وكل نفس نامية حساسة عرضة لها ولكن أوتار مشاعرهم مع ذلك قد تهزها إحدى تلك المؤثرات فتنتج آثاراً مختلفة متباينة لا من حيث جوهرها ولكن من حيث شكلها فتارة يكون هذا الأثر جارفاً وتارة يكون هادئاً لطيفاً إلى غير ذلك من شتى الصور والأشكال وذلك لأن كلا منهم مسوق بمزاج خاص وطبيعة خاصة حتى آلت لتشعر بأن لكل منهم طابعاً منفرداً وشخصية مستقلة.

وهذا الطابع الخاص هو الذي تأثر به السعدي فاتجه أسلوبه إلى نهاية معينة تنتهي دائماً بالأخلاق. ومهما

كان منهى هذا الأسلوب فإنه كان دائما يستقر عند هذه الغاية حتى أنه فى نفس غزل كان ينتقل فيه دائما إلى ميدان الحكمة والعظة .

وإذا كان السعدى كغيره من الشعراء قد مرّ بكل أدوار الحياة ومراحلها فذاق طعم الشباب وكوتيت جوانحه بشعلته وأدرك سن الرجولية واعتدالها والتف أخيرا بزداء الشيخوخة ووقارها وكل ها أدوار لها من الأثر ما يجب أن يكون واحدا عنده وعندهم . إلا أن من يقرؤه ويقرؤهم يشعر بالفرق بينه وبينهم ويحس ما للسعدى من ذلك الطابع الخاص الذى أشرنا إليه .

ثم إن كل من تنكشف له حقيقة هذا العالم الزائل وتظهر له نقائص الناس وأوجاعهم فتنصرف جهوده إلى القيام فيهم خطيبا واعظا وحكيما مصلحا لابد أن وصل إلى ذلك بعد درس طويل وتجربة شاقة كانت نفسه

عندهما نصرها شوبنهور هذا العالم المختلفة المتباينة قاسى الألم حتى أدرك آلام الناس وحتى أشفق عليهم وبكى لهم وربما كان للطبيعة فضل عليه كما كان لها الفضل على برناردى سان بيير حتى أن معنى الرحمة عنده كان ينحدر إلى أدنى الحشرات وهو الذى يتمثل فى ذلك بقول الفردوسى (١)

«لا تؤذوا النملة التى تحمل حبة القمح فإنها تريد أن تحيا والحياة شىء جميل»

والسهروردى يرى أن أجمل شىء فى الحياة هو الحب حتى أن أشهى الأيام عنده هى التى يقطعها به ورباعياته فى الحب تتناول كل مراتب الشعور من المداعبة إلى الوجد المتقد إلى الغيرة إلى صرخات الألم وإلى غير ذلك وهكذا يقول فى تلك الرباعيات (٢)

«لم يسعدنى الحظ فنشترك معا فى اجتلاء منظر السهل

---

(١) بستان ١١٤ (٢) رباعية ١١٩

ولقد قعد بنا الوجد عند حافة الغدير وكان بودي لو أنك تقتطفين أزهار الأقحوان بينما أقطف أنا ورد خديك»

ثم تندفع زفرات الشكوى الحارة واليأس المرير فيصيح « ياكنز الخديعة لو أنني أفلت من يديك فإلى أين أذهب . إنني لا ألبث أن أعود لك » (١)

« أتبكي عيني لأملأن الطفل عيني فإنك سبب سعادتي وهنائي . وكم أغرق عند غيبتك في بحر همي ولكني حينما اتجهت لا تقع عيناي إلا على صورتك »

ثم يرجع إلى الطبيعة لعله يأنس بها في تلك الغيبة:

« يقولون إن نسيم فصل الربيع العليل يحمل أريج الورد بينما الطيور تشدو والخضرة تكسو الروابي والزرقة تصبغ وجه السماء ولكن هذا كله أيتها الحبيبة لا يحلو إلا في صحبتك » (٢)

---

(١) رباعية رقم ١١٤ (٢) رباعية رقم ٤٢

ثم ينحدر إلى أحلام الحب وما يعتريك من اليقظة القاسية
: « قد رأيتني في تلك الليلة السارة أعض على
شفتيك الجميلتين ولكنني حين استيقظت وجدت
نفسي أعض أصبعي »(١)
وقد اطلع صديقي الأستاذ الأديب محمود بك
خيرت السكرتير بمجلس الشيوخ على هذا المعنى
فأعجب به ونظمه :

وذات دلٍّ شفني هجرها
تسخر من ناري ومن أدمعي
قد أقبلت في النوم ترجو الرضى
والصفح عما كان منها معي
فقمت من وجدي إلى خدها
أدميه بالعض ولم تمنع

---

(١) رباعية ٧٥

لكنني استيقظت أبكي وما

عرفت في نومي سوى أدمعي

ويعيره الناس بقبح صاحبته فيقول « إن هذه الصاحبة التي تذيق قلبي طعم الهدوء يقولون أنها دميمة وقد يكون هذا صحيحا ولكن خيل لي أن تكون دميمة في عيون الناس حتى لا يكون حبها مشاعا بينهم جميعا » وهو دليل على سعادته بها وفرط غيرته عليها

وهذه صورة من صور شعره في أيام شبابه أثبتناها هنا وهي تدلنا بما كان له من قوة التعبير عما كان يجيش في نفسه الملتهبة الشاكية الباكية المعذبة ليس فيه صناعة ولا تكلف لأنها يفيض بها جمال الشعور الذي يفيض به الوجدان

ومع ذلك فللسعدي في قصائده العربية شعر غزلي كان يحاول فيه السير على نمط صفي الدين الحلي

وشهاب الدين من معتوق من حيث تعمد المحسنات اللفظية والبديعية ولكنه مع ذلك لا يخرج عن السهولة والرقة اللتين نجدهما في شعر البهاء زهير ومن ذلك :

إن ليل الوصال صبح مضيء ، ونهار الفراق ليل بهيم (1)

فإن هذا البيت مع ما فيه من المقابلة بين الليل والصبح بالنسبة للوصال والنهار والليل بالنسبة للفراق والضوء والظلام لا تسأم الأذن من سماعه ولا تنفر النفس مما فيه من الصناعة كأنما قد جاءت عفوا فلا يحسها السامع ولا يشعر بها .

وكذلك قوله :

هات العقار وخذ عقلي مقايضة
لعل ينقذني من قيد وسواسي
واجل الظلام بشمس في يدي قمر

---

(1) من قصيدته صفحة ٢٢٧ .

يحكي بوجنته محراب شماس

أبيت والناس تهجع في منازلهم

يقظان أذكر عهد النائم الناس (1)

فإنه من يسمع هذه الأبيات الثلاثة لا يلبث أن يسكن من رقتها كأنما العذار الذي يطلبه قد استقر فيها وهو نوع ذلك صورة صاحبه في صدره من الأسى والتمهل حتى طلب أن ينسى وساوسه عند الكأس وهذا عدا ما تضمنه البيت الثاني من جمال التشبيه وحسن التركيب ولطف الأسلوب بجعله الوجنة كالمحراب محلا للعبادة التقديس والاحترام ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف ما يعانيه في ليله الطويل وهو يقظان بينما الناس نائمة أجفانهم بطيب الغمض . ومع ذلك فلم يخل هذا البيت

---

(1) من قصيدة صفحة [illegible]

من المقابلة والجناس الطريف.

ولقد تصفحنا كل قصائده العربية فإذا بها على هذا النحو من البساطة والسهولة ولا تكاد تكون به إلا عنصر من زخرف النظم حتى في هذه القصائد أنه غريب عنها. اقرأ له أيضاً هذه الأبيات تجدها كالماء في [illegible] سلاسة [illegible] وهو في هذه المرة يجمع كل البساطة في تناول المعاني مع حلاوة الوصف وحسن الاختيار

[illegible] وهدير الرعد قد أبكى الغماما
في زمان [illegible] الآس [illegible] النفس زماما
في زمان كشف الورد عن [illegible] اللثاما
يا عذولي في [illegible] لم والى [illegible]
إنني لا أعبأ بالناس ولا أخشى الملاما (١)

---

(١) قصيدة ص ٢٢٧

ومن ألطف ما جاد به خياله في الوصف أوفيا
فما أُنكا [illegible]

قد التفت على أكر النهود

في هذا تشبيه النهود بالذكر من أبدع التشابيه المبتكرة
ولنشير إلى أنها مفتاح للقلوب . وفي أيدينا لحسن ندى
الحنان [illegible] . [illegible]
[illegible] الأستاذ الشيخ [illegible] الجارم مفتش اللغة
العربية في وزارة المعارف المصرية البليغة في هذا
المعنى [illegible] الذي أنه مقتصر على [illegible]
[illegible] العلوم [illegible]

كأنه الثدي زركهربائي * على جرس القلوب له احتكاك

وإذا كان السعد عبد الشباب والحب نعمة من
نعم الحياة فكم يكون خيبه علينا [illegible] أن ينصرم
عهدهما وحالت دولتهما :

« إنني لسوء حظي لم يعد في يدي [illegible] الشباب

فما عدت أصلح للحب واللهو . نعم لقد آلمت أنا أدفنها

شابا وكانت صباحة وجهى النقى تحسدنى عليهما الورد

والبللور وشعرى الذهبى يبدو لى فوق عنقى وطاقيتى

مع أنها من الحرير أحمرا حملا ثقيلا على رأسى اللينة(١)

وفى هذا الشعر الفارسى الذى جئنا بنموذجه

يبكى على عهده العهد القديم الذى كان فيه يلهو

ويلعب لا يشغله شاغل من شئون الحياة . ولكن هذه

المرة حقيقة الحياة المرة فيصيح :

من هذه الزهرة الصبوحة التى قطفناها لم تذبل

للآن ولكن الريح العاتية لفوتها وهى مليئة بالأمل

غير أنه ماذا يفيد الأمل الطويل إذا كانت الحياة

قصيرة »(٢) .

وبعد ذلك يذكر فى موضع آخر لنا الحقيقة

---

(١) بستان ٢٠ (٢) قصيدة ٢٤

« إذا ذهبت الريح بأغصانه بعيدا فقد ذهبت [illegible]
ولم تبق إلا ذكرياتي والحسرة عليها . فيجب أن يقف الربيع
عن ترديد أناشيده » .

وهي صورة [illegible] ما فيها من الندم والكآبة ضمنها خيالا
راقيا وهو وقوف الربيع عن أناشيده حدادا عليها !

وعند ذلك يفيض به الأسى ويضطرب حتى ليرمي
عهد الشباب بالبعد عن الأمانة :

« إياك أن تطلب الأمانة عند البلبل لأنه كل مرة
يقف عند زهرة غير التي وقف عندها من قبل »(١)

وأخيرا فإنك عند هذا الوصف المقبل تشعر بالعواطف
المختلفة التي كانت تتطاحن في نفسه وهو يذكر الماضي الشهي
الغض الذي انقضى في صفو الأيام مع المقابلة الشديدة للدموع
المثيرة للأشجان الذاهبة بالنفوس

---

(١) جلستان ص ٦٤

منذهب منه تخون العبرة والموعظة (١)

" ولما كشف مع مساعده القوى غطاء القبر فرأى في جوفه تلك الرأس التي كانت تحمل التاج وقد ملأ التراب حفر عينيه التي طالما ملأها النور وكانت تلك الجثة الهامدة في ثوب موته طعاما للنمل والدود والعظام قد سدت منافذها الوحول . وهكذا سخر الموت من هذا الجسم الذي كان من قبل رشيقا صحيحا يفيض بالحياة والقوة "

وفي هذا يقول أبو العلاء المعري من قصيدته التي رثى بها جعفر بن المهذب (٢)

كم صائن عن قبلة خده
سلطت الأرض على خده

وحامل ثقل الثرى جيده
وكان من يكبر الضعف من عقده

---

(١) ص ٢٥١ (٢) كتاب سقط الزند طبع مجلدين بأول الجزء ...

وقد توسع دوماس الصغير في هذا الوصف في مقدمة روايته «لدام أو كاميليا». حين ذهب أرمان دوفال مع صديقه إلى قبر حبيبته مرجريت لنقل جثتها إلى قبر آخر:

«وكان الصدأ قد علا مسامير التابوت من أثر الرطوبة حتى لدعى الحفاران عناء طويلا في فتحه. وعندئذ تصاعدت منه رائحة كريهة بالرغم مما كان منبثا فيه من النباتات العطرية فصرخ أرمان: يا الله! يا الله. وقد ذهب لونه واصفر وجهه. أما الحفاران فتراجعا عندما بدا الكفن حتى ظهرت خلاله خطوط جسمها وقد تآكل أحد طرفيه فكشف عن إحدى القدمين....

وبعد فك خيوطه ظهر فجأة وجه مرجريت ولكنه كان مخيفا لا تجرؤ عين على النظر إليه ومرعبا لا يقدر لسان على وصفه.

عيناها لم يبق منهما غير حفرتين وشفتاها لم يبق منهما أثر. وأسنانها بيض مشدود بعضها إلى بعض

وشعور ضوئية سوداء وكأنه ... حقيقة بالعصر ...
وقد تركت ... النفس ... تجربة ...

هذا ... الورد الأبيض أشاهد الذى كان مشوبا
بحمرة الورد والذى ... الاختلاط بأحياء ...
وما أجمل قول الشاعر من معنى قريب من هذا أيضا

يا ... الحبيب فيك ...
من أرواحنا ... إليها
... كانت عليك الطفل
إنها ... للذكر ...

... الشعراء ... في
شؤون الحياة ... إلى إصلاح النفوس
وتهيئتها للسعادة . وعلى كل ... فإنه يرى أنه أساس
هذه ... التى يتخبط الناس ... فيها هو ...
... التى تتذوق عندها النفوس شراب السكينة

والهدوء حتى بلغ من حرصه عليها أن نصح إليهم بالبعد عن بعض الأعداء والحساد لأن جسم الإنسان هو وحده الذي يقع عليه الأثر السيء الناشئ عن هذا البغض ولاشك أن النفس بتخلصها من الشواغل وذاقت حلاوة السكون وطعمت أجفانها لذة الغمض كان بإمكانها أن تقيم في قصر أو كهف أو في جبل . ولكنه مع ذلك ينصحها بالبعد عن النوم الكثير لأنه يفسد عليها حياتها ولم يفعل السعدي ذلك إلا لأنه عرف ما لهذا العالم من الشواغل الصارفة بالنفوس عن طريق الهداية حتى ليقول : «كم من السنين ستمر بك بغير أن تفكر في المرور على قبر أبيك »(١)

وهو على ما عهدناه فيه قد أكد شفقته لهذه حقيقته وعلم أنه عالم متقلب ولذلك ينبه الأفكار دائما إلى هذه الحقيقة :

---

(١) رباعي ٤٨

«لا تعلق آمالك على هذا العالم فإنه غنى عنك كالموسيقار يقصد كل يوم زبوناً جديداً. ثم كيف يترك الإنسان قلبه عند معشوقة لها في كل صباح خليل جديد» (١)

«.... ولكن لا تعلق بهذه الكرة التي لا استقرار لها فإنها ستدور أبداً وبحيث لا تكون فيه عندها» (٢)

وهكذا ترى الناس أمام هذا العالم الباطل وزخرفه الزائل تغلي قلوبهم كالقدر وعلى شفاههم الابتسامات فهم يتكلفون البشاشة لعلمهم بأن الفصل الأخير من رواية هذا العالم دام محزن وإن كانت جميلة» (٣)

ولذلك يقول السعدي: «يقطع الناس حياتهم في خياطة أثوابهم والاحتيال على طلب القوت اليومي فكيف يلقى مخلده في النار يوم الحساب ... أسرفوا

(١) بستان ٩٥ (٢) بستان ٦٩ (٣) [illegible] (٤) [illegible]

من حبل في إحراق أنفسهم »

وهي صورة لما يلاقي الناس في الحياة من شقاء .

ولكننا مع ذلك نذهب الى أنه مادام أن على الإنسان أن يقطع القدر المكتوب له من أيامها فلم يفوته بغير عمل يكون من ورائه نفع . أنه في هذا المقام لا ينظر الى قيمة الحياة من حيث طولها وقصرها وإنما من حيث ما قطعت فيه فقد تكون حياة المرء قصيرة ولكنها نافعة وهكذا يناجي نفسه ويناجي غيره : « فكرت ذات ليلة في أيامي المنصرفة فرأيت أن كل نفس من أنفاسي يصعد الى السماء يأخذ معه جزءا من حياتي فيا أيها الرجل الذي بلغ الخمسين ولا تزال نائما هلا فكرت في الانتفاع بالأيام القليلة الباقية ألا علمت أن الحياة كالثلج المعروض تحت أشعة شمس الصيف »(١)

---

(١) جلستان ص٩

«إنك لو عرفت قدر الحياة لندمت على أنك بعثرتها»

وفي الواقع أن نظر السعدي في الحياة مع بساطتها وزوالها نظر حكيم عاقل مجرب لأن الحياة مادامت ضرورة واجبا على كل إنسان أن يحياها وطريقا محتما عليه أن يسلكه فليسلك من طريق العمل النافع المخفف لويلات الإنسانية وعذابها فهو على ما رأينا ينفر من الجمود وعدم الحركة والإقبال على ذهول المتصوفة وانجذابهم لأن هذا ينافي الحياة حركتها ونشاطها وينفر من المسغبة وتعمد الجوع لأن هذا ينافي القدرة على القيام بعبادة الله والـ[illegible] السليم في الجسم السليم على أن في العمل المتواصل المستمر انصرافا عن التفكير والاسترسال في الخيال مما يدعو إلى اليأس والسخط والتشاؤم «لقد مرت أيام بلا نفع كما تمر الليلة بين الكؤوس»(١).

---

(١) [illegible] ص ١٢.

ولكن لا يغيب عنه أن لهذه الحياة أمدا وأن لها مهما
طالت فلها غاية وأن كل يوم من أيامنا يدخل في حكم
الأمس بعد كنفس من أنفاسها يخرج فلا يعود وكالحبر
الذي لو طللت تأخذ منه صورة حسرة آل به الأمر
إلى الزوال». وعند ذلك يقف لحظة بين الماضي والمستقبل
تنحدر دموعه على ما فات ويرتجف قلبه لما هو مقبل فيصيح:
«هل ترى يعود قلبي فيخضر خضار هذا الغصن غدا
فوق قبري. كم قطعنا أيامنا الأولى فرحين ضاحكين
ولم نذكر أن هذه الأيام التي مرت علينا قد لبثت آلاف
الأجيال تشكو مطية غيرها فيا أسفاه على ربيع
حياة ولى في الخفة واللهو. لقد أنزلقت تلك
الساعات السعيدة كما ينزلق البرق في سماء الليل»(١)

---

(١) بستان ص ٢٤٤

وهكذا ينتقل السعدي إلى ما لنا من المصير فيذهب كل مذهب في التصوير والخيال :

« ما هي الأيام حتى التهمت الأرض نخاع هذه الرأس التي طالما كانت مصنع الخواطر » (١)

وهو مقام فيه ما فيه من الحسرة على الحياة الزائلة وعلى حظ الإنسان مهما كان قدره وعلى سلطان الأقدار وجبروت الموت .

ومع ذلك فإنه مهما في مثل هذا الموقف من الرهبة فإنه يسبكه في قالب أنيق رشيق فيقول :

« إن الغصن لا يكاد يرفع قامته الهيفاء في روضة الحياة حتى تلفحه ريح الموت العاتية » (٢)

* * *

وللسعدي أيضا مراث للإجابة إلى ذكر شيء ومنها هنا الأثر كغيرها من مراثي الشعراء ومع ذلك فهذه إحدى مراثيه البالغة في انقراض الدولة العباسية على أثر غارة هولاكو

---

١) صاحبنامه ٥٠

٢) بستان ٢٦٤٠

٣)

على قصبتهم دار السلام يرثي بها المستعصم بالله ويستصرخ فيها النبي (صلعم) للهول الذي نزل بأمته. وهي نموذج من نماذج الأدب الخياضة بالخواطر السيالة والوصف الملتهب والحكمة العالية:

"أيتها السماء دعي طوفانك ينهمر دما على الغبراء فلقد غرب كوكب خضرها المستعصم أمير المؤمنين" (٢)

* * *

"يا رسول الله هذا يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم فإن كنت ستقوم يوم النشور حقا فقم الآن واشهد مصرع امتك"

* * *

"لقد سكبت نحور جواري القصر العظيم وعبيد النعيم دما على شبح الموت، فتمزقت نياط قلوبنا وذابت بدماء الحسرة والشجون"

* * *

الغوث. الغوث من اليمين إلى الشمال، ومن اليسار إلى العسر ومن الابتسامات إلى الدموع!! ما كان يخطر بالبال أن تدور

---

(١) ترجمنا هذه المرثية عن إحدى قصائد السعدي الفارسية وهي التي أشرنا إليها

(٢) القصائد الفارسية صفحة ٢٢٧

الكواكب في عكس مدارها ويصير ضياء الشمس الى ظلمة الرمس»

* * *

ليرجع البصر كرتين اولئك الذين شاهدوا جلال البيت الحرام الذي كانت رمال أعتابه الناعمة موضع رؤوس الساجدين من القياصرة والخواقين فلقد صارت الآن موطئ خيول المغيرين»

* * *

«أراقوا من عترة الرسول دماطاهرا فسال زكيا ينتشر عبيره في مساجد الطغاة ومخادع الجبابرة».

* * *

«هيهات أن نطمع في السلامة والأمن بعد أن نضب معينهما الروحي. وما المرء واصدقاؤه في هذا العالم إلا كالخاتم وفصه لاغنى لأحدهما عن الآخر»

* * *

«يا له من خطب فادح جرح الألوان كلها بصارمه المسلول

حتى أصبحت مياه الدجلة الصافية تصطخب أمواجها ثائرة من خالص الدم لو مضت في سبيلها لما وسع البطاح ونخيلها إلا أن تتوارى في ذلك الثوب الأرجواني الرهيب»

* * *

«ما خلق العويل والبكاء إلا للنكبة والشقاء وما كان لنا أن نمطر تربة الشهداء مدامع الأحزان وأقل ما أعد لهم عند الله أن يمرحوا في نعيم جناته»

* * *

«لعمرك ما بكت العيون جزعا ولا جزعت القلوب أسا ولكن الحنين إلى مجد الإسلام والإخلاص لمن مضى من الشهداء يستنزفان ماء الشؤون لهول الفراق وبعد التلاقي»

* * *

«وإذا كانت قد ذهبت العدالة والرحمة اليوم فلنرقب الغد القريب حيث يمضي الجميع إلى رب الجميع ويبعث الموتى

من قبورهم إلى خالقهم دامية وجوههم والهة قلوبهم وتمت القصاص العادل ولات حين مناص »

* * *

« أى أحبابى لا تركنوا إلى الدنيا ولا ترتبطوا قلوبكم بها فإنما هى برق خلب وأمل يذهب :

« يوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر »

* * *

« لا تصرع الشجاعة قوة الموت ولا ينفع الحذر متى نزل القدر . »

* * *

« والشجاع الكمى هو الذى يلبى داعى الموت إذا دنت ساعة الأجل . وعندها ينبو صارمه الهندى وتخونه فطنته وفراسته »

* * *

« لا خير فى امتداد الحظ بعد سقوط شرهه كما لا تنفع

الكرة إذا انقلب السرج »

* * *

« تتقاتل النسور على جيفة الدنيا والكل آكل مأكول ومتى أحرزت نصيبا من العقل فجنب حظك من سهام هذا المعترك وكن منه كالطير(١) الذي يقنع من الضوضاء والجلبة بنظرة الحكمة والاعتبار »

* * *

وعلى كل حال فإن مراثي السعدي تمتاز بالموعظة المتغلغلة فيها لأنها لا تفارقه قلم في أغراضه نحوضه حتى أنه لما رثى عطابك أبا بكر خرج من رثائه إلى عظة الناس: « انظر هنا إلى هذا الذي كان ملك الملوك كيف نثر الزمن تاجه وألقاه عن رأسه عند وسادة من التراب »

---

(١) طير فارسي اسمه سيمرغ

على أنه يتخيل أنه سيقف هذا الموقف فيرثي نفسه أيضا: «إن الرياح التي تكنس أرض المقابر ستنثر آخر ذرة من ترابي» (١)

وصفوة القول أن شفقة السعدي لم تقم على فلسفة وإنما كانت تيارا من الحنو والرحمة ينطلق من نفسه نحو آلام الناس سواء كانوا أطفالا صغارا من البشر أو شيوخا أو نساء وحتى نحو الحيوانات والحشرات كما سمعنا ذكره عن النملة وهكذا لم يكن السعدي شاعرا للحب وإنما كان قلب شاعر... أيضا

(١) بستان ٢٥٠

١٣

أسلوب السعدي

(٢٠٤)

كلمة تمهيدية (٢٠٤) - البساطة والوضوح (٢٠٥) - ارتباط الصورة بالمعنى (٢٠٦) - التوسع في التصوير (٢٠٧) - الصور المبهمة (٢٠٨) استعمال التشبيه والمجاز والمقابلة وغيرها من المحسنات (٢٠٨).

تعرضنا فيما سبق الى شيء من هذا الأسلوب حين تكلمنا من السعدي من حيث النسب وما كان غرضنا ان نتناول طريقته على وجه خاص ، ولكننا ذكرنا ذلك لأهميته في ذلك الموضع لأن الرجل العظيم كالسعدي وغيره يحرك الناس دائما لكشف آثارهم وأساليبهم وطرقهم واذا لم يكن هؤلاء اولى بمثل هذه العناية فمن يكون جديرا بها ولذا نرى اكثر آثارهم تحفة من التحف يحرص عليها المغرمون بقيم الرجال فيقتنونها ولو دفعوا فيها ما دفعوا من المال الكثير . وهكذا نرى المتاحف الخاصة والعامة حريصة كل الحرص على مثل هذه الآثار .

ولنضرب لذلك مثلا بنسخة واحدة من آثار السعدي (رباب افرناس) للصانع الماهر «ستراديفاريوس» فقد حظي بكل العناية حتى وضع لها كتاب يحتوي صورة من تلك الآلات وصورا تاما ملونا على قدمها وضياع بعض الوانها وذكرت الى جانبها مقاساتها واوصافها

وسمزاتها والأيدي التي تناولتها والأثمان العالية التي دفعت فيها تثبت أنها في الحقيقة كنز من الكنوز وتحفة من تحف الصناعة .

وكذلك نرى قلما من أقلام الكتاب الشهيرين أو محبرة من محابرهم ... لمثل هذا الالتفات وفي الواقع أليس هذا القلم هو الذي خرج من شقه مجهود أولئك الكتاب العبقريين وأليست تلك المحبرة هي التي كانت لعاب ذلك المجهود النادر الثمين .

[illegible] بعض الحكومات للنابغين من أبنائها دفعها إلى [illegible] في مكان خاص إلى جانب ملوكها ورجالها البارزين

[illegible]

[illegible] الحكومات [illegible] في التماثيل [illegible]

[illegible] الرجال [illegible] الحقيقة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وإنما تكريم العلم والأدب واحترامهما وتقديسهما هو وحده الذى يدفع بالناس إلى مثل هذا الاتجاه الشريف المحمود .

ولاشك بعد ما سلف أن الطريقة التى كانت رائد الأفذاذ من الكتاب تعد أيضا من أكبر الغايات التى يجب الوقوف عليها لأنها فضلا عن أنها أثر خاص فإنها كذلك طريقة قد تكون من غير الطرق الواجب اتباعها فهى من هذه الوجهة اكتشاف عظيم يجب أن يكون له حظه من هذه العناية .

ولهذا فإننا نسوق الآن فى هذا البحث الأسلوب الذى كان يجرى به قلم السعدى لإيضاح تلك الكنوز من النصائح والحكم والعظات

* *

ويمتاز السعدى فى أسلوبه بالبساطة . نعم أنه كان يستعمل شيئا من المجاز والكناية وغيرهما ولكنه مع ذلك كان يسير دائما بعيدا عن التكلف والتعقيد فيخيل لك أن ذلك المجاز وتلك الكنايات وما يتبعها من بعض الحقائق حتى لقد فضل أحيانا بين الحقيقة والصورة التى يغلفها اعتمادا على ما أشرنا إليه فلا تدرى مكان كل منهما .

ولو أننا تتبعنا أسلوب من جاءوا بعد السعدي سواء في النثر أو النظم كوصاف وعلى يازدى وعلى الأخص حسين واعظ كاشفي نرى أنهم لا يمتازون عنه فيما كان للأسلوب من تلك البساطة حتى أنه ليعد قاعدة ثابتة ساروا عليها وحذوا حذوها.

ولقد رأينا السعدي يعبر عن أغراضه فيما كتبه باستعمال الصور الكثيرة فهذه الصور إذن هي أساس الوسائل التي يستعين بها وإذن فلنبحث فيها.

وإننا نراه قد اعتاد أن يربط كل معنى بغيره ثم يربط هذا المعنى بالصورة. (1)

ولكن يجب أن لا نندفع إلى قول بغير أن نفكر ونهذبه فالكلام بالشوب لا يصح أن نقدم على قصه قبل أن ندققه في قياسه "

وهو أسلوب مع بساطته حلو ليس فيه تعقيد ولا خشونة وقد وفق بين الحقيقة والصورة بحيث يمكن أن نتخذ معنى

---

(1) بستان ٧٩،

الحقيقة من الصورة والصورة من الحقيقة فإذا قلنا يجب أن نفكر قبل أن نتكلم انصرف خاطرنا أيضا بغير تعب إلى أن الثوب كذلك يحتاج قبل قصه إلى التدقيق في مقاسه وكذلك إذا تمكننا الأمر.

والسعدي يستعين بالصور في بعض المقامات كمدحه شمس الدين جويني حيث يقول:

"يا عالم الأسرار ويا صواب الوداعة ويا نجم الفرقدين الرحيمية والسماحة ويا كوكبا في سماء العظمة ويا أيها البحر الفياض بالنبل ويا بناء الصبر ويا شمس البيان وقبلة الإسلام"

إن الإكثار من الصور في مقام واحد أدى إلى السآمة ولكن السعدي ما كان يفعله إلا قليلا وفي ظروف ضيقة وقد لا يعدي فيما عداها صورتين في سياق واحد كقوله في الجلستان (١) "العالم الذي لا يعمل بعلمه كالشجرة التي لا ثمر لها والنحلة التي لا يرجى منها عسل"

---

(١) ٢٢٦

والسعدي لا يتقيد في هذه الصور بتشبيهات بعينها ولا يستقيم وجدها فتارة يأخذها عن لعبة (ميل) وهو لعبة فارسية فيقول:

« إن وجه هذا الفتى بين جدائل شعره للكرة العاج في حفرة المضرب الأبنوسي » (١)

وتارة يأخذها عن القلم وهو يشبهه بطائر فيقول ما معناه:

« ما أسرع هذا الطير في جريانه وهو في كل لحظة يغمس منقاره في الدواة حيث يتساقط بعد ذلك ماء الحياة منه » (٢)

ولنكتف بهذا القدر بعد ذكر هذين الخاطرين البديعين:

« كيف أمسك زمام دموعي وقد أرخته يد الصبر » (٣)

« ولقد جرف ما نهر النوم في تياره » (٤)

وما كان السعدي يقصر صوره على غرض خاص بل كان يسوقها في كل غاية من غاياته فيقول في الحسن:

« ألا ترى حمرة هذا الورد كخدود الحسان وغصون هذا السوسن كجدائل العشاق » (٥)

---

(١) جلستان ٥٩، (٢) جلستان طبعة كلكتا (٣) شرحه ٤٧، (٤) بستان ٦٤،

(٥) جلستان ١٢٧

« ولقد تساقط الندى فوق أغصان الورد كما كان يتصبب العرق من خد الفتى الجميل »

وفي السعداء من الناس :

« انظر إلى هذه الأشجار ألا تراها تزهو في قميص من أقمصة السعداء في أيام الأعياد » (١)

وفي الحكم :

« إن مخطوبة الحكم لا وفاء لها عند خطابها » (٢)

وفي مقام عذاب المحبة :

« ما أشبه قلبي بجذوة من حديد محماة في النار » (٣)

وكثيرا ما يستعمل الطبيعة بمافيها في أسلوبه فيشبه الفتاة البيضاء والرجل الطويل بعمل الشتاء والجيش بالموج والعزلة بين الجبال ورحمة الله بالأمطار والنسيب بالشجرة المثمرة الواقف بها والرعدة بخفقان ورقة الصفصاف .

---

(١) جبستان ١٤ (٢) جبستان طبعة كلكتا ٤٦ (٣) جبستان ٥٠

«لقد انغرس البيان في قلوبهم كما ينغرس الخاتم في الشمع»(١)

«يحنو رأسه كما ينحني المسمار تحت المطرقة»(٢)

«رنانة جوفاء كالطبل»(٣)

وكذلك يقول سيف الغضب وسهام الخصومة ونحوذة الجد وكأس الحياة وسلسلة الكلام وحجاب الشهرة (حيث يهتك) وتمام العفو وفي هذا يقول «جر قلم عفوه فوق صحيفة خطيئتي»(٤)

ولقد عاب بعض المستشرقين على السعدي اقتصاره على ايجاد الحقيقة أولا ثم إلباسها بالصورة التي يراها وأن تخلص من ذلك أن خلق المعنى في نفس الصورة كان مجهولا عنده ولكنه علل ذلك بأن السعدي كان منصرفا كل الانصراف الى الوعظ فهو من هذا القبيل يعد من شعراء الحكمة. ومع ذلك فقد رأينا ما كان للسعدي من الدقة حتى أن المعنى والصورة كان يصعب فصلهما عن بعضهما كما في هذه الصورة الرائعة أيضا:

---

(١) بستان ١٨٩ (٢) بستان ١٦٥ (٣) بستان ١١٨ ومواضع أخرى (٤) بستان ١٠١

وقد لا تخلو تشبيهاته واستعاراته من الحيوانات والنباتات فإنه
يشبه بالفراشة كما يشبه بالوردة وهو تشبيه منه لجسد
الشاعر فيقول: «كالفراشة تتساقط في اللهب»(١) و«كالذبابة
كلما طردت عن قطعة السكر عادت إليها»(٢) وهو يشبه العالم
الذي لا يعمل بعلمه بالشمعة التي تحترق بالحرارة ولا يدله في بدنه
الحب ويشبه الرجل المسلوك بشهواته بالحمار الموحول
وكثيراً ما يقول «حصان الفصاحة» و«فارس الحكمة» و«ميدان المناقشة
وساحة العبادة» وفي بعض الأحيان يتعرض في أسلوبه إلى
جسم الإنسان أيضاً فيقول «قفص الجسم» و«طير الروح» و«لسان
الاعتراض» و«مرآة القلب» وإنه يشبه شعر اللحية بجرات القلم
وإنه قدم «حياة النفس في وحول الموت»(٣)
وكثير من الأشياء المتداولة يدخل في تعبيراته أيضاً ومن ذلك:
«لا توسخ بالخطيئة ثوب الطهر»(٤)

---

(١) بستان ٨١ (٢) بستان ١٤٨ (٣) بستان ١٠٤ (٤) جلستان ٣٠٠

«ولستُ أدري ما يخفيه كتاب الأقدار، ولكني أرى أثر الدم في عنوانه»

وكذلك كما في هذه الصورة البديعة

«المال لا يبقى طويلا في أكف المحسنين ولا الصبر في قلوب العشاق ولا الماء في الغربال» (١)

لأن المعنى في الصورة الأولى مفهوم وهو الجود ومفهوم في الصورة الثانية وهو القلق وإذا كانت الصورة الثالثة مفسرة لهما إلا أن المعنى يمكن استفادته منهما بغير الحاجة إليها.

على أن ابن السعدي إذا كان قد ولع بمثل تلك الصور فإنه لم أيضا كثير من المعاني ليس فيها شيء ومن ذلك كقوله:

«لا يحصد المرء غير ما زرع» (٢) و «وكل إنسان عامل من الشرفة» (٣) و «الشر يخيط عينه الحكيم» (٤)

---

(١) جلستان ٤٩ (٢) بستان ٥٢

(٣) بستان ٨٠، (٤) جلستان ١٩٦

١٤

حكم السعدي على عصره

٢١٤

كلمة تمهيدية (٢١٤) — إقبال السياح على شيراز (٢١٥) — الحياة في شيراز (٢١٥) — الحمامات (٢١٥) — أسواق شيراز (٢١٦) — السيدات والأسواق (٢١٧) — مشارب القهوة (٢٢٠) — الملاعب (٢٢٠) — طريقة الحياة عند كبار الناس وعند الأمراء (٢٢٠) — مكانة هؤلاء من قلب الشعب (٢٢١) — مظاهر الاحترام للملوك — رأي السعدي في عصره ومعاصريه (٢٢٣) —

حكم السخاوي على عصره

رأينا أن نثبت هذا البحث هنا لأن رجلاً قديراً كالسخاوي خير من يترك لنا أصح صورة عن أهل زمانه ورأيه فيه وفيهم تقديراً للفضل وخدمة للتاريخ وكثيراً ما نرى الحكم على الشرقيين وعلى نفسيتهم يأتينا على ألسنة السياح من المستشرقين الذين يجوبون الأقطار والأمصار وكثيراً ما يخطئون إما لقصر المدة التي يقضونها فيها وإما لجهلهم دقائق لغاتها وتعدد لهجاتها وقد يبنون الحكم على فريق قليل منها لأن هؤلاء القوم الذين أوتوا نصيباً وافراً من العلم والصبر والجري وراء الحقيقة أبعد الناس عن التعصب الذميم بمعناه المألوف سيما أن الحقيقة لا تتقيد بزمان أو مكان.

ومن البديهي أنه لا ينبغي أن يحمل الحكم على أمر من الأمور إلا إذا فهم وألم بأطرافه (والحكم على الشيء فرع عن تصوره) ولذلك كان علينا أن نثبت حكم السخاوي على أهل

زمانه أن نذكر عن لسانه طرفا مما كانت عليه شيراز في ذلك العهد ومع ذكر شيراز نفتقد ذكر إيران بجملتها

ونرى أن السعدي لا يسير على خطى غيره من المؤرخين من أهل الشرق (١) فيكدس الوقائع تكديسا ويذكر الحوادث ذكرا مجردا ولهذا يكون الطابع الغالب بعيدا عن روح العصر وعن روحه من حيث تأثره بها وحكمه عليها.

ولم يتعرض السعدي في الجلستان والبستان كثيرا لشيراز من حيث موقعها ومبانيها مما يدخل في دائرة علم وصف الأرض (الجغرافيا) ولكنه يعني على الأغلب بحياتها وحركاتها ولعل خير ما يصل من طريقه إلى إيراد صورة صحيحة عن أخلاق أهل زمانه وعاداتهم.

---

(١) لا نقصد المؤرخين بطريقة التعميم فإن منهم من وضعوا الكتب من الأخلاق والاجتماعيات والتاريخ على أسلوب تحليلي عامر نذكر منهم الكاتب القدير محمد بك المويلحي صاحب كتاب حديث عيسى بن هشام والصحفي أحمد بك حافظ عوض في كتابه فتح مصر الحديث

وهكذا تراه يذكر إقبال السياح عليها وهم محمولون في الطرق الموصلة إليها على محفات مظللة يحملها أناس خصصوا لذلك وبينما هم ناعمون تؤججهم تلك المحفات ولا تمس أقدامهم مضض السير وتعب الطريق يقطعها أولئك الحمالون الساكنون على أقدامهم وأجسامهم عرضة للريح والأمطار والشمس (١) حتى إذا أبصروا شيراز وقد أقبل الليل وجدوا كثيرا من الخانات المفروشة تستقبلهم فينامون إلى الصباح نوما هنيئا تحت أغطية من الفرو . أما الفقراء من المتنقلين فلا يجدون غير الدهليز والسكك إلا مهدا لاستراحتهم (٢)

وكذلك الحال أولئك الرجال المترفين إذا قصدوا إلى حمامات السوق فهناك ينتظرهم الاحترام والإكرام والنعيم والخدم يتزاحمون على القيام بما يطلبون وهم منتشرون تحت أغطية العمدة نزلت بنقوش في ألوان زيادة وحلة ترفية

---

(١) بستان ٥٠٥ (٢) جلستان ٥١

تمثل صورة بعض الشياطين (١)

ولهذه الساعات أيام خاصة في الأسبوع للعيد يخلط فيها غير السيدات وهنا يصف لنا السعدي مع مقارنة جميلة:

" إنني ... أجوع انتظر الى المائدة وعليها شهي الطعام كما ينتظر الفتى الأعزب إلى الحمام في اليوم المخصص للسيدات "

وهكذا ينتقل السعدي بانتقال السياح الى وصف الأسواق وما عليها من الإقبال والزحام بينما المحتسب يمر في ... الكيل ... من يغشون في الميزان ... (٢)

أما التجار فتراهم جالسين في حوانيتهم ولا هم لهم إلا الكسب من أي طريق ولو كان في ذلك خسارة المشترين بغشهم أو خسارة جيرانهم من التجار أمثالهم بحكم التزاحم (٣) - ومن هذا نرى أن هؤلاء التجار ما كانوا يعرفون نظام النقابات ولا قاعدة العرض والطلب حتى يحددوا الأسعار

---

(١) بستان ٩٦ (٢) بستان ٩٤ (٣) جلستان ١٠٦

تتقف عند حد معين يرتفع أو ينخفض تبعاً لهذه القاعدة.

وأهم ما يلفت السعدي النظر إليه كثرة السيدات في مثل تلك الأسواق وعلى الأخص أمام حوانيت الأقمشة والحلى والأعطار مما يدل على أن النساء في كل عصر من العصور تستميلهن هذه العروض حتى كن يذهبن بأنفسهن للاقتناء مما كان ينتقده السعدي فيقول «لا تستمع من النساء غير الدوار وإذا شرعت امرأتك تذهب إلى السوق فلتأخذك رحمة من معاقبتها»(١)

ولا يلام السعدي على هذه الشدة في مثل ذلك العصر البعيد الذي كان لدولة الحجاب فيه شأن.

ومع ذلك فمن ذا الذي يمكنه أن يضبط نفسه أمام الجمال والحسن الرائع فيحول حتى بين عينيه وبين النظر «إنني كلما مرت امرأة جميلة وقفت عيني ندوا وقد ولى

---

(١) بستان ٢٩٦

عهد شبابى » (١)

أما رأى السعدى فى الحجاب فظاهر من قوله :

«وكم نظهر حسن القامات تحت الخمار . حتى لو رفعته ذعرت .

تم ماحاجتنا الجميلة التى كالبدر بالأصباغ . ولكن من الأسف

أن ذوات الوجوه الساحرة والحديث السكرى يختفين تحت

هذا الخمار . وعلى كل حال فالحمد لله الذى جعله سدا بيننا

وبين الدميمات » (٢)

أما النسوان فتراها مكتظة بكافة الطبقات حتى

الأطباء الذين يجرون عمليات الجراحة للناس ووضع اللبخ

علنا بأنفسهم على قارعة الطريق للاكحالين والجراحين فى

الميادين والمتنزهات ولا يوم لسوق هؤلاء فى حبل

إلى التجديد فيها أيضا من جهة فنون بغير التجارة كالخيريين يعلم

السيميا والمشعوذين من الأسنان وكذلك المتصالحين

---

(١) راجع ص١١٢ (٢) راجع ص٩٦

ومبنات الهوى (المومس) وهن يمشين بحذر خشية أن تقع عليهن
عيون رجال الشرطة ((١))

ولا ينسى السعدي صنفا آخر هو فريق المشتغلين
بالكيميا الذي يطلق عليه علماء الإفرنج الآن اسم (alchimie)
ولعل (أل) هنا هي أداة التعريف في اللغة "عربية ولكن
السعدي يتناول هذا الفريق بأسلوب تهكمي يدل على مراده
منهم فيقول «ترى المشتغل بالكيميا ماشيا في أطمار بالية
تدل على ما هو عليه من الفقر والبؤس وهو يعتمد على
السعادة من طريق الأمل» ((٢)) يريد أن اشتغالهم بها هو
الذي أفقرهم فهم يشترون الغنى الموهوم بالشقاء الواقع.
نعم إن العلم الحديث كشف لنا كما ذاع عن عدم
استحالة صنع الذهب من الزئبق ولكنها محاولة تستنفد
أضعاف ما يحصل عليه عند المشتغلين به وهي على كل حال

---

(١) بستان ١٠٩ (٢) بستان ٩٢

قطرية فهد فى أول طفولتها .

وإلى جانب حوانيت التجار مشارب القهوة ينقطع إليها الناس فيقضون الوقت فى شرب النبيذ المطبوخ وفى لعب النرد والشطرنج حتى تحين ساعة تناول الطعام (١)

وعلى ذكر الالعاب يتعرض السعدى أيضا لسباق الخيل عند أبواب المدينة واللعب فوقها (٢) بعصى طويلة وكرات يقذف بها إلى مسافة معينة (٣) وإلى جانب ذلك المصارعة والقنص والتبارى برمى السهام (٤) والصيد الذى لا يزاوله إلا أهل الطبقة العالية[٥] من الأمراء وغيرهم . ولكنهم لا يزاولونها على مرأى من الناس بل فى الخلوات فى ساحات قصورهم التى يقطعون الحياة الناعمة فيها بين الجوارى الحسان الغارقات فى الحلى وعلى أصوات الغناء من حناجرهم المبالغ فى تعطيرها بالأعطار .

(١) جلستان ١٠٦ (٢) جلستان ١٨٧ (٣) بستان ١٧ (٤) بستان ٧٤

(٥) جلستان ١٧٥

أما مظاهر خروج هذه الطبقات سواء إلى ساحات القتال أو إلى الفلوات للقنص والصيد فحدث عنها ولا حرج بين صفوف الخدم والجنود وعلى أصوات المزامير والطبول ولكن ما هي مكانتهم من قلوب الشعب وهل هم محل محبة وأهل الاحترام؟ سؤال يجيب عليه السعدي بسلسلة من الخواطر على أساليب متعددة تبعا لما يقتضيه كل خاطر. وهكذا يقول: (١)

"كان أحد المتصوفين الفقراء يدق بعض المسامير في نعل حذائه فلما أبصر به أحد القواد جذبه من كمه تحاملا له تعال فطهر لي حصاني"

وكذلك يقول: إن الغني المحب لنفسه لا يستحي من أن يلقي التراب والقاذورات على بيت جاره الفقير (٢) وشتان بين هذا الغني مع ذلك الجار المسكين

---

(١) گلستان ص ٧٠ ح (٥) [illegible]

أما مظاهر خروج هذه الطبقات سواء إلى ساحات القتال أو إلى الفلوات للقنص والصيد فيحدث عنها ولد هرج بين صفوف الخدم والجنود على أصوات المزامير والطبول.
ولكن ما هي مكانتهم من قلوب الشعب وهل هم محل محبة وأهل للاحترام؟ سؤال يجيب عليه الشعراني بسلسلة من الخواطر على أساليب متعددة تبعا لما يقتضيه كل خاطر. وهكذا يقول: (١)
«كان أحد المتصوفين الفقراء يدق بعض المسامير في نعل حذائه فلما أبصر به أحد القواد جذبه من كمه تعال فطمر لي حصاني»
حتى لا أنه
وكذلك يقول: إن الغني المحجوب يأنف ولا يستحي من أن يلقي التراب والقاذورات على بيت جاره الفقير (٢)
وشتان بين هذا الغني مع ذلك الجار المسكين

(١) طبقات [illegible] (٢) [illegible]

وبين فردريك الأكبر ملك بروسيا مع إنسان سوقي الطحان
مع أنه ملك حتى إذا أبى ذلك الرجل الفقير أن يفرط في
مكان طاحونته ليدخلها فردريك في قصر بوتسدام وصاح
فيه: ألا تعلم أنه في وسعي أخذه بالرغم منك صاح هو
أيضا: هذا إذا لم يكن في برلين قضاة! وعند ذلك تركها
له واعتبر بقاءها كالقرحة في خد ذلك القصر من أنه
يجور على هذا الرجل وهو أحد أفراد شعبه.

على أن مثل هذا العدل قائم أيضا عند كثير من
ملوك الشرق وحسبنا عدل عمر بن الخطاب. وإذا كان
فردريك دل تصرفه على عدله ولكنه هم قبل ذلك بالظلم
مما لم يفرط من عمر في اللحظة النفسية كأنه لا يخشى ملامة
في نصرة الحق حتى مع ولده وغير عمر بن الخطاب عمر بن
عبد العزيز حتى صار يضرب بهما المثل في العدل فصار
يقال عدل العمرين.

وينتقل السعدى بعد ذلك إلى ما كان من أمر الوزراء مع ملوكهم فى شيراز فيجثون عند أقدامهم ووجوههم خاشعة مطرقة إلى الأرض (١) بل إن غير الملوك أيضاً كان لهم مثل هذا الاحترام المتجاوز حد الكرامة كالقضاة والكتاب (٢) وموظفى الديوان. وما ذلك إلا لأن الحاجة والمصلحة يصادفان فى ضعيف الإيمان فتسايرون على بسيط ذل الخضوع وبيع الكرامة فى سبيلهما بل يفعل ذلك بعض المتصوفين حتى يتساءل السعدى: «ما الذى ذهب بهذا الصوفى إلى قصر الوالى» (٣) ثم يرد على نفسه قائلا: «إن من الناس من هو مضطرب ظاهره خاشع باطنه ولكن العصر الذى جئنا إليه خشعت فيه ظواهر الناس وخبثت بواطنهم» (٤)

---

(١) جلستان ٢٧ (٢) جلستان ٢٥ (٣) صاحبنامة ٦٩ (٤) جلستان ١٢٦

وهكذا يحذر السعدى من أمثال هؤلاء

الدجالين الذين لا لون لعقيدتهم ولا ثبات لإيمانهم

وعلى الأخص ذلك الطريق الخبيث الضار الذى يسمه

القلندريين حتى ليقول فيهم « إذا أقام أحد الفتيان

ليلة عند قلندرى فإن أبين يقطع النذر من طهارته» (١)

والقلندريون ضعف أيضا من الطفيليين الذين

يفرطون فى الأكل حتى لا يبقى فى معدتهم فراغ للتنفس

فكأن بطونهم قرب منتفخة ومن امتلأ إلى هذا الحد

فكيف تطمع عنده فى التفكير والتأمل (٢)

هذا هو العصر الذى قال السعدى أنه الجاف

هى التى قضت عليه أن يعيش فيه مع شأن أهله وملقهم

ونميمتهم ووشايتهم وكذبهم وخبثهم وما كان فيه

من استبداد الأشرار وموت نفوس أهله تحتى فالملمات

لو أن سهما يصيب ظهر ذلك القرن السافل بقومه »

---

(١) بستان ٢٠٠ (٢) بستان ٢٥٦

مصادر الكتاب

١ - تاريخ الأمم الإسلامية - للعلامة محمد بك الخضري طبع مصر بمطبعة المعارف سنة ١٩١١م

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي - لجرجي زيدان - مطبعة الهلال سنة ١٩٠٢م

٣ - تاريخ آداب اللغة العربية - لجرجي زيدان - مطبعة الهلال سنة ١٩١١م

٤ - آثار البلاد وأخبار العباد تأليف الشيخ زكريا بن محمد بن محمود القزويني طبع جوتنجة سنة ١٨٤٨م

٥ - تاريخ إيران تأليف شاهين مكاريوس طبع مصر بمطبعة المقتطف سنة ١٨٩٨م

٦ - دائرة المعارف تأليف البستاني المجلد التاسع طبع بيروت سنة ١٨٨٧م بالمطبعة الأدبية.

٧ - دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي.

٨ - تاريخ الكامل - لابن الأثير الجزري. طبع بالمطبعة الأزهرية ١٣٠١هـ

٩ - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - طبع بالمطبعة الحسينية المصرية.

١٠ - رحلة ابن بطوطة.

١١ - تذكرة الشعراء في مناقب وأحوال الشعراء العرب والعجم تأليف ميرزا دولتشاه السمرقندي
سنة ٨٩٢هـ. مخطوط محفوظ بدار الكتب الملكية نمرة ١٢٣ فن التاريخ الفارسي

١٢ - خلاصة لطائف الخيال في مناقب شعراء العجم تأليف محمد نصير بن محمد جعفر الشيرازي
مخطوط بدار الكتب الملكية نمرة ٦١

١٣ - آثار عجم تأليف فرصت حسيني الشيرازي طبع الهند مطبعة صفدر ببمباي سنة ١٣١٤هـ

١٤ - المعجم في آثار ملوك العجم تأليف فضل الله بن عبد الله سنة ٧٢٣هـ مخطوط محفوظ - دار الكتب
الملكية نمرة ٦٢

١٥ - قاموس الأعلام لشمس الدين سامي بك - الجزء الرابع مطبوع بمطبعة مهران بالآستانة
سنة ١٣١١هـ ص ٢٥٧٢ (باللغة التركية)

١٦ - لباب الألباب تأليف عوفي يزدي طبع أوروبا

١٧ - شعر العجم لشبلي النعماني بمطبعة معيد عام أجره سنة ١٩١٤م

١٨ - حياة سعدي تأليف ألطاف حسين حالي طبع محمود بريس علي گره سنة ١٨٩٢م.

١٩ - تذكرة الشعراء للسير جور أوس

20 A Literary History of Persia. By Edward G. Browne M.A., N.B., F.B.A. London 1906

21 A History of Persia. By Lieut-Col. P.M. Sykes C.M.G., C.I.E. London 1915.

22 Encyclopaedia Britannica. eleventh edition Cambridge University Press.

23. La Grande Encyclopédie vol 28 Paris.

24. Essai sur Le Poète Saadi. [Pa]ris. Libraire Paul Geuthner, 13, rue Jacob, 13 — 1919.

ومما لا يخفى أن مؤلفات السعدي كانت من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها . وهي التي ذكرناها بالتفصيل عندما تعرضنا لآثاره [راجع صفحة ٧٧]

أعلام الكتاب

A. I. R.

O.TB.R.

أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
ط	
ظ	
ع	
١١ علی بن شاذانه	٢٦
١١١ القاضی عز الدین علوی	٤٢
١١٢ مولانا عز الدین ابراهیم	٤١
١١٣ عزیز الدین اومانی	٥٥
١١٤ علی بن احمد ابی بکر البیزوتوفی	٧٨، ٧٩، ٥٤، ٩٠
١١٥ علاء الدین جوینی	٥١، ٥٧، ٨١
١١٦ عماد الدین خوارزم شاه	٦
١١٧ عبد القادر الکیلانی	١٦٦
١١٨ عمر بن عبد العزیز	١٦٦
١١٩ عمر بن اللیث	١٦٦
١٢٠ عمر بن الخطاب «علیه السلام»	١٦٦
١٢١ الإمام علی	١٦٦
١٢٢ الشیخ علی ابن الجارم	١٨٥
غ	

اسماء الأماكن

	الأماكن	الصفحات التي وردت فيها
١٦	ألمانيا	٧٠
١٧	أمستردام	٧٠
١٨	العرب	٨٤
١٩	الشام	٨٤
٢٠	المدرسة الخانقاه	٥٧
٢١	الهند الشمالية	٢٧
٢٢	العراق العجمي	٤٠
٢٣	أسفرطبه	٣٨
٢٤	الشيخ يوسف	٤٤ ، ٤٤ ، ٤٤
٢٥	بحر العرب	٢٥
٢٦	〃 القلزم	٢٥
٢٧	〃 الروم	٢٥
	الباء	
٢٨	برسلا Bresla	٧٤
٢٩	خريطة بلاد فارس	.
٣٠	〃 〃	٢٥ ، ٦١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٦٠

ABK

٣٧٠٥٩٠

تمّ